قطرةٌ من الحياة

يونس

دِيوَانٌ قَصَصِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ

تأليفُ الدّكتُور

هَيْثَم عَبْد المَنْعِمْ الغَرِيبْ صَقْر

أُسْتَاذُ نُظُمِ المَعْلُومَاتِ المشَارِك

كُلِّيّةُ الحَاسِبَاتِ وَالمَعْلُومَاتِ

جَامِعَةُ المَنْصُورَة بِمِصْر

قطرةٌ من الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير أو المسح الضوئي أو التسجيل أو التخزين بأي نظام استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة، كما لا يسمح بتعديل المادة الموجودة في الكتاب أو أي جزء منه دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

الطبعة الأولى

رقم الإيداع بدار الكتب

2025 / 32880

ISBN: 978 — 977 — 8752 — 66 — 3

www.dartaba.com
+٢٠١٠٠٨٠٠٩٠٠٤

دار طابة للنشر والترجمة المنصورة - مصر

قطرةٌ من الحياة

يونس

دِيوَانٌ قَصَصِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ

تَأْلِيفُ الدُّكْتُور

هَيْثَم عَبْد المَنْعِم الغَرِيب صَقْر

أُسْتَاذُ نُظُمِ المَعْلُومَاتِ المشَارِك

كُلِّيَّةُ الحَاسِبَاتِ وَالمَعْلُومَاتِ - جَامِعَةُ المَنْصُورَة بِمِصْر

دار طابة
للنشر والترجمة
المنصورة - مصر


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

تمهيد

ليست هذه الصفحات حكايات للتسلية،

بل محطات على طريق القلب..

ستجد فيها دمْع النّدم،

وبَسَمات التوبة،

وخطوات العودة...

قَصَصٌ تلتقط لحظاتٍ فارِقَة..

حيث يلتقي الإنسان بحقيقته،

ويكتشف أنّ لكل قلبٍ بابًا للرجوع..

مهما طال الغياب!

إهداء

إلى كُلّ قلبٍ أرهقتْهُ الطُّرُقات،

إلى كُلّ عين بَلَّلَها نَدَمُ الفَوات،

إلى مَن يبحث عن بَصِيص نُورٍ وسط العتْمة،

إلى مَن يُصَدِّق أنّ العودة إلى الله مُمكنة..

مهما طال الغياب!

أُهدي هذه الصفحات،

لعلها تكون جِسْرًا إلى الأمان،

ونَسِيمًا يُوقظ الأمل،

ورسالة بأن الله أقرب مما نظنّ.

شُكْرٌ خَاصّ

إلى كل أبطال هذه الصفحات.. الحقيقيين والافتراضيين،

الذين عبَرت قصصهم إلى هذا الكتيّب،

والذين اضطررت ـعلى مَضَضٍـ أن أحذف قصصهم،

لكن بقي أثرُهم مَحْفُورًا في القلب.

إلى أمي رَحِمَهَا ٱللَّهُ

وإلى أبي، وإخوتي وزوجتي وأولادي،

شكرًا لدعائكم، وصبركم، وحبكم الذي لا يَنْضَب.

إلى شيخنا الفاضل الدكتور/ أحمد النقيب حَفِظَهُ ٱللَّهُ

شكرًا لعَطائِكم وعِلْمِكم ونُصحكم.

إلى الأخ العزيز الأستاذ/ أحمد عادل،

شكرًا لمراجعتك الدقيقة للكتاب،

ولجَلسات النّقاش التي أَثْرَتْ مادته أكثر من مرة.

إلى دار طابة،

شكرا لمجهودِكُم وحِرْصِكم على إخراج هذا العمل إلى النُّور.

وإلى كُلّ مَن تَرَكَ أَثَرًا في حياتي،

شكرا.. فقد كنتم

-بِوَعْيٍ منكم أو دُون وَعْيٍ-

جزءًا من هذه الرحلة.

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الذي جعل للكلمة أَثَرًا يُوقظ الغافل، ويُثبت الصادق، ويُعزّي المكلُوم، ويقود السائر في دروب الحياة إلى نور الوحي، والصلاة والسلام على مَن كان كلامُه وَحْيًا من رب العالمين، وعلى آله وصَحْبِه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا الكتاب الذي بين يديك يُشْبِهُ شاطِئًا تَتَغَلْغَلُ في رماله أصدافُ البحر العميق.. تتوزّع على صفحاته قَصَصٌ ووقفات، وذكريات ومشاهد، بعضها مُبَلَّل بدمْع الندم، وبعضها يَتَلَأْلَأُ بفرح التوبة، وبعضها يُوجِع القلب لكنه يفتح له نافذة أَمَل. ليست هذه الصفحات للتسلية العابِرَة، ولا سَرْدًا بارِدًا للأحداث، بل هي محاولات لالتقاط لحظات فارِقَة من العمر، حيث تتقاطع الأقدار مع

القلوب، وتتصارع العادات مع الحق، ويكون القرار نقطة تحول في حياة الإنسان.

فكم من صَدفة فقدت بَرِيقَها، لكنها لا تزال تحمل في أعماقها أثر البحر.. وكذلك القلوب، قد تنكسر، لكنها إن حفظت أثر الحق، عادت للحياة.

تتنوع هذه الصفحات بين مشاهد الفقد والرجوع إلى الله، وصراعات النفس أمام الفتن، ورسائل الوفاء، والصبر، والأمل. ستجد فيها البحر مرآةً للقلب، والمدينة التي تُطفئ أنوارها لتوقظ الضمائر، والصديق الذي غيرته الأيام، ودمعة الندم التي جاءت متأخرة، وأبوابا للعودة فُتحت من حيث لم يُظن أنها تُفتح.

ويُختتم هذا الكتاب بقصة ذات طابع خاص، نسجت على خيوط من الشعر والحكمة، مستلهمة من التائية الشهيرة لأبي إسحاق الإلبيري، التي حملت في أبياتها زادًا للمسافر إلى الله، وتنبيها للغافل عن المصير، فجاءت القصة لتكون ترجمة روائية لجوهر تلك الأبيات ومراميها.

نسأل الله أن يجعل هذه الصفحات نافعة للقلوب، باعثة على العمل، وأن يكتب لها القبول بين عباده.



يبقى الرجلُ طفلاً حتّى تموت أُمُّه

كثيـرًا ما كانـت زوجته تُلـح عليه أن يصطحبهـا والأولاد إلى المصيف في الساحل الشمالي.

مـكان أَخَّـاذ؛ زُرقـة البحر تمتـد بلا نهايـة، ورائحة الملح تعبَق في الهواء، وصوت الأمواج يطرق القلب قبل الأذن.

لكنه كان دائم الاعتذار.

ومـع ضغـط متواصـل مـن زوجتـه وأهلها، سـمح لها أن تسـافر مـع الأولاد، ترافقهـم أمُّهـا وخالُ الأطفـال، بينما ظل هو في بيته.

رأى بعـض المخالفـات الشـرعية فـي المصيـف، فنصح برفـق؛ فاسـتجابت الزوجة واسـتجابت الأسـرة، حتى اسـتقر الأمر على حال يرضيه.. بحمد الله.

مضت ثماني سنوات وهو بعيد عن البحر.

اشتاق للصوت والرائحة والمنظر، اشتاق إلى ذلك الخط الأزرق الذي يلتقي فيه الأفق بالسماء، إلى الرمال التي كانت تلتصق بقدميه حين كان صبيًّا.

هذا العام لم يعد قادِرًا على المقاومة.

قرر أن يصحب زوجته وأولاده، بعدما اطمأن أنّ المحاذير التي كان يحذر منها قد رُوعيت.

كان الطريق في أوله عاديًّا.

لكن حين اقتربوا من طريق الساحل، بدأت الذاكرة تنفلت من قيودها.

الأماكن هي هي.. المطاعم نفسها.. اللافتات نفسها.

وفجأة، ظهرت أمامه صورٌ قديمة:

تذكّر أمه رَحِمَهَا ٱللَّهُ حين كانت تصحبه لزيارة خالته هناك.

كانا يتوقفان عند مطعم بعينه؛ كانت تحب طبقا معينا لا يُباع في مدينتهم الصغيرة.

توقف عند باعة الفاكهة على الطريق.

رأى التين، فشعر بشيء يهزّ قلبه.

اشترى بعضًا منه.

جلس في السيارة، التقط ثمرة تين، قَضَم منها قَضْمَة أُولى، ثم توقف..

نظر إلى زوجته وقال بصوت مَبْحُوح:

كان طعمُه مختلفًا.. حين كانت أمي هنا.

ثم صمت.

مدّت زوجته يدها برفق، أمسكت يده.

لم تقل شيئًا.. لكنها نظرت في عينيه، فعرفت أنه لا يشتاق إلى البحر بقدر ما يشتاق إلى أُمّه.

رفع الثمرة مرة أخرى، قضم القضمة الثانية ببطء.. وكأنما يقول لنفسه:

حتى بعد الفَقْد.. لابُدّ أن نُكمل التين.

كما لابُدَّ أن نُكمل الحياة.

سبحان الله..

كم يتغير في الدنيا برحيل الأم.

يبقى في القلب فراغٌ عميق لا يملؤه أحد سواها.

وصدق من قال: يبقى الرجل طفلًا حتى تموت أمه.





التابلت الذي كشَف عُمره الضائِع

وصلوا إلى الشاليه.

البحر أمامهم كما هو.. أزرق هادئ، يحتضن السماء الصافية كأنه لا يعرف الهَمّ.

الأولاد يركضون نحو الشاليه وهم يصرخون بفرح، يشيرون إلى الموج، إلى طيور النَّورس، إلى الرمل.

والزوجة، بطبعها العمليّ، فتحت النوافذ وبدأت تُرَتِّب المكان وهي تقول بتَنْهِيدة مَأْلُوفة:

نفسي في شغّالة تساعدني زي جيرانّا دُول!

أما هو..

فكان معهم، لا فيهم.

يمشي، يتكلم، لكن قلبه في مكان آخر.

حين وقف أمام الباب، حاول فتحه..

يده ارتجفت!

ليس لأن المفتاح صعب،

بل لأن فتح الباب يعني فتح باب الذكريات.

دخل بخُطى ثقيلة.

جلس في الزاوية التي اعتاد الجلوس فيها منذ سنوات، كأنما الزمن تَجَمَّد فيها.

فتح درجا صغيرا بجانب الأَرِيكة..

فإذا به تابلت قديم.

غبارٌ خفيف غطّى الشاشة،

كأنّ عَقْدًا من الزمان استلقى عليه دون أن يوقظه أحد.

لكنه حين أضاء،

بَدَت الذكريات واضحة كضوء الصباح.

وصله بالشاحن.

انتظر.. أضاءت الشاشة.

الواجهة القديمة.. التطبيقات.. الحسابات..

وحساب شخصي قديم، لا يذكر كلمة مروره، لكنه لا يزال مفتوحا.

تصفح قليلا..

ثم دخل إلى الملاحظات.

فتحت له ذاكرة منسية بابها.

ملاحظة مؤرخة: ٢٠١٥

عشر سنوات مضت..

كانت طويلة، متعبة في صدقها.

عنوانها:

الواجبات العاجلة: التوبة، الإخلاص، مراجعة الذات، والمشروعات المستقبلية.

قرأها مرتين.

ثم نظر في السقف.. كأنها صفحة امتحان لم يكملها.

قال في نفسه:

لو كنت التزمت بما كتبته حينها.. أين كنتُ اليوم؟

أسفلها مباشرة..

ملاحظات طبية عن والدته رَحِمَهَا ٱللَّهُ.

⫽ قبل الوفاة بيومين:

رفع نسبة الألبومين ضروري لإجراء جلسة الكيماوي.

⫽ قبل الوفاة بيوم:

التحاليل تظهر أن نسبة الألبومين والصفائح الدموية قليلة جدا.. قد نخفف جرعة العلاج الكيماوي.

⫽ يوم الوفاة:

لا شيء مكتوب.

⫽ اليوم التالي (الدفن):

اسم محل صغير قرب المقابر لتحديد الطريق.

أحسّ بغُصَّة في حلقه حين رأى التاريخ الأخير،

كأن الزمن يضغط على صدره ليذكّره بما لا يُنسى.

تمهل.. تأمل..

ثم رفع نظره وقال في نفسه:

كم من إشارات مرت.. لكننا لا نفهمها إلا حين لا تعود.

ثم وجد ملاحظة أخرى بتاريخ ٢٠١٧

نفس الأفكار، لكن أُعيد ترتيبها..

أكثر عمقا.. أكثر رجاء..

رؤية أوضح للحياة والموت والعمل.

فكر طويلا..

ثم رفع رأسه، نظر في المرآة المقابلة..

مَن هذا الرجل الذي ضيّع عشر سنوات؟

مشروعات تاهت،

أيام تبدَّدَت،

وجهد أُهْدِر في قلق لا يقدّم ولا يؤخّر.

وأحزان استنزفته، بينما كل شيء كان عند الله محسوبا، مقدّرا، مكتوبا.

وقبل أن يغلق التابلت..

لمح إشعارا قديـمًا، لم ينتبه له من قبل:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:٣١]

كأنها رسالة انتظرته عشر سنوات كاملة.. حتى يفتحها.

قطع عليه خواطره صوت زوجته:

أنا خلّصت!

ثم صاح أحد الأولاد من الشرفة:

يلّا يا أبي.. البحر مستنّينا!

أغلق التابلت.

مسح الغبار عن شاشته مرة أخيرة..

ثم قام.

لكنه لم يكن كما كان.

سيذهب إلى البحر.. لكن بقلب جديد.


2025

رِحلة البحْر بقَلْب جَدِيد

خلع حذاءه..

تركه بجانب الرمال، كأنّه يخلع عن نفسه هَمَّ السنوات الماضية.

بُرودة الرمل تسلّلت بين أصابع قدميه، كأن البحر يهمس:

أهلًا بك من جديد.

رائحة اليُود في الهواء.. لم تكن رائحة بحر فقط، بل رائحة طفولة، رائحة أُمّ، رائحة توبة.

سار حافيًا على الشاطئ، والشمس تُلامِس صفحة البحر الأخيرة قبل الغروب.

جلس وحده.

الأولاد يركضون،

يبنون قلعة رملية ويثبّتون فوقها عَلَمًا صغيرا.

ضحكاتهم تتداخل مع صوت الموج،

والزوجة تراقبه من بعيد،

ثم تقترب وتجلس في صمت.

تَأَمَّلَتْه قليلًا، ثم قالت بهدوء:

إنت النهارده.. مش شبه امبارح.

قال وهو يبتسم بعينٍ فيها شيء من الحياء:

كنت عايش خايف.. مشغول أكون! لكن مشغول عن ربنا.

سكت لحظة، ثم تابع:

كنت بجري في كل الاتجاهات، ونسيت أرجع.

نظرتْ إليه، وقالت بابتسامة دافئة:

أنا كنت عارفة.. بس كنت مستنّياك تكتشف لوحدك.

القلب لما يصحى، بيحكي أحسن من الكلام.

جاءتهم صُغرى أطفالهم، أعطتهم صَدفة فارغة وجدتها على الشاطئ.

نظر فيها طويلًا، ثم وضعها في جيبه.

كأنها تذكار من البحر، يقول له:

حتى بعد ما الموج يروح.. الأثر بيبقى.

فتح التابلت من جديد.

نقل الملاحظات القديمة إلى هاتفه،

ثم كتب ملاحظة جديدة:

٢٠٢٥ ـ شاطئ البداية

هذه المرة.. سأبدأ من حيث انتهيت.

سأخطو ولو ببطء.. المهم ألا أعود للغفلة.

العمر الباقي لا يحتمل أن يضيع.

قرر أن يزور قبر أمه، وأن يبدأ مشروعًا صغيرًا اسمه: **رسالة التين.**

ولعل القادم.. أجمل.

لمن قرأ.. وتفكّر.. وبدأ.





الشَّعْرة البيضاء

استيقظ باكِرًا كعادته، ليس حُبًّا في الصباح، بل لأن عليه أن ينهض.

جسده يتثاقل، ونفسه تَئِنّ، وأفكاره تحاصره:

إلى متى هذا الروتين؟

ما جَدْوَى هذا العمل؟

أين تلك الرسالة التي يَنْشُدها منذ سنوات؟

لكن لا وقت للأسئلة.

الساعة تمضي، والمدير لا ينتظر، والمواصلات لا ترحم.

وقف يغسل وجهه على عَجَل، فوقع بصره على وجهه في المرآة.

شعرة بيضاء.. في لحيته!

اقترب أكثر. بل شعرتان.. في العنفقة!

تَأَمَّل رأسَه، فوجد خيوطًا بيضاء مُتناثرة، كان يراها في رؤوس الآخرين فيتأمّل ويشفق.

ولم يخطر له أنها ستطرُق بابه يومًا.

ظل واقفًا أمام المرآة، لم يكن ينظر في وجهه بقدر ما كان يغوص في داخله.

أنا في الرابعة والأربعين من عمري.. لم أحقق كثيرًا مما كنت أَطْمَح إليه، خطط مؤجلة، مشاريع لم تبدأ، وأمنيات ضاعت في الزحام.

لكن لا مفر، تأخر الوقت.

ارتدى ملابسه وخرج..

فالحياة لا تنتظر المتأمّلين طويلا.

خلال الغداء، مازحه أحد الأصدقاء:

شعرك شاب يا رجل!

ضحك الآخر:

الشّيب من علامات الجمال!

لكن صديقا ثالثا علَّق:

هل تعلم أن بعض العلماء قالوا إن قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧]، **أن «النَّذِير» هنا هو الشَّيْب؟ سمعت الشيخ أبا إسحاق الحويني يقول ذلك.**

ساد صمت قصير، تبعه كلام وضحك، ثم تفرقوا كل إلى عمله.

لكن هو.. لم يعد كما كان.

الكلمات تدوي في رأسه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾..

النذير في رأسه، في لحيته.. في المرآة كل صباح!

عاد إلى بيته شاردا، تناول عشاءه مع أسرته،

ثم دخل غرفته يبحث عن المقطع، فسمع الشيخ يقول:

سأل الفضيل بن عياض رجلًا: **كم عمرك؟ قال: ستون سنة.**

قال: **أنت منذ ستين سنة تسير إلى الله، توشك أن تصل.**

قال الرجل: **إنا لله وإنا إليه راجعون.**

قال الفضيل: **من علم أنه إلى الله راجع، فليعلم أنه موقوف،**

ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسؤول، فليُعِدَّ للسؤال جوابًا.

قال الرجل: **فما الحِيلة؟**

قال الفضيل: **أَحْسِن فيما بَقِيَ، يُغفر لك ما مضى.**

أغلق المقطع. جلس صامتًا. ثم ببطء.. مد يده إلى المصحف.

فتحه.. ليس كما يفتحه كل مرة، بل فتحه بقلب جديد.

قلب تَعِبَ من الغفلة، ضاق بسؤال لا ينتهي: «لماذا أعيش؟»

قلب بدأ يدرك أن العمر لا يعود..

وأن الطريق الحقيقي هو الرجوع إلى الله.

غاصـت روحه في آيـات التوبة، استشـعر لأول مرة طعم السكينة،

وسأل نفسه بصوت خافت:

أما آن لك أن تعود؟





حين أَطْفَأَت المدينةُ أنوارَها

كان فتًى بسيطا من بلدة هادئة تلُفها الخُضرة، وتتسلّل إلى لياليها همسات الذكر بعد صلاة العشاء في المسجد الكبير. عاش عمره في هذه البلدة الصغيرة البسيطة، لكن قلبه كان مشدودًا إلى المدينة؛ يتخيلها بوابة المجد، ومَوْئِل الطموح، وبقايا ذاكرة أمه التي دَرَسَت هناك.

وكانت الأم إذا تحدثت عن سنوات الجامعة، انفرج وجهها، وتلألأت نظراتها كأنها تراكضت بين المكتبات والمساجد. شجعته على العلم، وغرست فيه تَوْقًا خفيًّا لذلك المكان البعيد.

كبر الفتى، وتخصّص، وملأ وقته بالمذاكرة والقراءة، وفي كل تدريب في المدينة كان أول المسافرين، ساعده

في ذلك امتلاك والده شقة صغيرة هناك، فصار الانتقال سهلا، والتعلُّق أشد.

وفي إحدى الدورات التدريبية، تعرف على فتاة من بنات المدينة. كانت لَبِقَة، ذَكِيّة العبارة، دقيقة الحضور... شدته شخصيتها، وتسلل الإعجاب من قلبه إلى رسائله.

كانت بينهم في الدورة مجموعة إلكترونية، فاستغلها ليكتب إليها.

كتب كثيرا.. لكنها كانت لا ترد إلا قليلا،

تتجاهل تسع رسائل،

وتجيب العاشرة بعبارة قصيرة.

ومع الوقت.. وبعد لَهْفَة، أجابت.

وصار الحديث أكثر دِفْئًا.

ثم طلب أن يتقدم رسميا، فوافقت، بل رحّبت.

وجاء اليوم المنتظر.. اصطحب أباه وأمه وإخوته..

ودخلوا بيتها في حَيٍّ راقٍ من أحياء المدينة.

كان لقاء طيّبًا، خفيفا، لا مشكلات فيه. لكن القلب لم يكن مطمئنا تماما، فقط طغى الحلم على الفِطْنة.

مرت الأيام، وازداد التعلق بها، وفي لحظة صفاء بينهما..

سألها: **لماذا كنت لا تَرُدّين سابقا؟**

فأجابت: **بصراحة.. كنت أغلق المحادثة دون أن أقرأ..**

لأن رسائلك كثيرة.. لم أكن أملك الوقت لها.

صمت..

وكان قد قضى ساعات طويلة يُحَدِّق في الشاشة..

منتظرا ردًّا واحدا، حتى يبتسم.

ثم بدأت الشروط تنكشف..

الشقة؟ لابُدّ أن تكون في المدينة.

السكَن؟ قريب من والدتها في حَيٍّ لا يقوى على استئجار غرفة فيه.

العمل؟ لا مجال لتركه، رغم أنه مُؤَقّت.

النقاب؟ لا تقبله الأسرة.

والعودة إلى بلدته الصغيرة؟ مستحيلة!

ثم كانت الضربة الأخيرة، حين اجتمع الأبوان، بحضور الفتاة.

قال له والدها: **ثلاثة شروط لا يمكن التنازل عنها:**

① **ابنتي لا تلبس النقاب.**

② **لا تترك عملها.**

③ **لا تسكن معك في بلدتك الصغيرة.**

قال له بهدوء:

وإن اقتنعت به بنفسها؟

وإن كان بيتُها أَوْلَى من الوظيفة؟

وإن كانت البيئة الصالحة أولى من الزِّينة؟

قال الأب: **هذه شروطي.. خذها أو اتركها.**

خرج الفتى، لا يدري أهو خارجٌ من بيت عروس..

أم من حلم كاد يُذله.

نزلت الفتاة وراءه لتقنعه أن هذه مَطالب منطقيّة.

لكنه ما عاد يسمع.

ركب الحافلة من حَيِّها الراقي إلى أطراف المدينة، ثم إلى موقف المحافظات، وهناك ألقى برأسه على زجاج الحافِلَة المتجهة إلى بلدته.. سكون عميق، وعَبرة حبيسة، ثم دمع انسكب.

في الطريق، لمح مشاهد البَهْرَجَة والضوضاء تتناقص، وهدوء الحقول يزداد، كأن الأرض تعيد إليه توازنه، كأن المدينة تطفئ أنوارها عنه طَواعية.

عاد إلى مدينته الصغيرة، وصلّى ركعتين طويلتين لم يطلب فيهما شيئًا، فقط همس:

يا رب، علَّمتني أن المنع رحمة، وأن الطرق التي لا تُفتح،

قد تكون بابًا للنجاة.. فلك الحمد.

عند الفجر، خرج يتوضأ في سكينة، ودخل المسجد قبل الأذان.

وبعد الصلاة، مر من أمام الكُتَّاب القديم، فرأى شيخا مُسِنًّا يُعلم الصبيان. جلس معهم، فتلفت إليه الشيخ وقال:

يا بني.. الخير في البساطة، والبركة في القناعة، والسكينة في اختيار ما يرضي الله، لا ما يرضي الناس.

هز رأسه، ثم ابتسم، وهمس لنفسه:

كنت أبحث عن المدينة، فوجدت قلبي هنا.

دخل بيته، فاستقبلتْه أمه بوجهٍ نَدِيٍّ، وقالت:

ما بك؟ كنتُ أراك ساعيًا وراءَها بشدة..

قال: **وجدتُ أن طعم الإيمان يُوهَب لمن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولا. المدينة لم تكن سكَن قلبي يا أمي، بل كانت اختبارًا، نجاني الله منه.**

بكت الأم.. وقالت:

رزقك الله من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾

[الطلاق:٢ـ٣]

ومرت الشهور.. وفي صباح مُشرق، كان هو على مِنَصّة التكريم في جامعته، يتسلّم شهادة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى. بجواره فتاة منتقبة، خَلُوقة، من أهل بلدته، خطبها في هدوء، دون شروط فوق الطاقة، ولا زُخْرُف دون مضمون.



لما تَغَيّر... تغيّرُوا

كان ذلك المساء صاخِبًا بالضحك.

جلس هو وابن خالته على دَرَج بيت العائلة، يتبادلان النِّكات عن أيام الجامعة، ويرسمان خططًا للسفر والعمل. كانا كالأخوين؛ يتشاركان الأسرار، ويتقاسمان الأحلام، حتى كأن دمًا واحدًا يجري في عُروقهما.

والدتاهما كانتا كتوأمتين، وأزواجهما أقرباء، وحتى عملهما قادهما يومًا إلى الغُرْبَة معًا، حيث كان الجميع يرى في هذا التواصل نعمةً نادِرة.

كان ابن خالته خريج الجامعة الأمريكية، مُنبهرًا بالفكر الغربي، مَفتونًا بالمناهج العقلانية، لا يضيع فرصة للسخرية من المظاهر الدينية، ومع ذلك كان يناديه مازحًا بـ«سقراط»، إعجابًا بحواراته.. طالما كانت بعيدة عن الدين.

في عامه الأخير بكلية الطب، وأثناء مُناوبة طارئة، دخل عليه شاب في عمره تقريبًا، وجهه شاحب، وعيناه تائهتان، يتشبّث بالحياة بخيط رفيع. لم يكن في حالته ما يُرجى معه الكثير، لكن في لحظاته الأخيرة همس:

ادْعُ لي.. لا أعرف كيف أقابل ربي.

تجمّدت الكلمات في أذنه، وتردّدت داخله أيامًا وليالي. بدأ يراجع نفسه، يتساءل عن حقيقة ما يسعى إليه، وعن غايته من الحياة. كان النجاح الدراسي والعمل في الخارج يملآن خططه، لكن قلبه صار فارغًا من الطمأنينة.

في ليلة هادئة، وقف بين يدي الله، وانكسر، وبكى كما لم يبكِ من قبل. عاد إلى الصلاة في وقتها، وأطلق لحيته، وأصبح قلبه معلّقًا بالمسجد، يبحث عن العلم الشرعي، ويسعى لمجالس الذكر. لم يتخلَّ عن أخلاقه، بل زاد حِلمًا ورحمة.

لكن المفارقة كانت مُوجعة:

حين كان غافِلًا عن ربه، كان عندهم لطيفا، عاقلا، مَرِحًا.

وحين اهتدى، صار مُتشدِّدًا، مُعَقَّدًا، غير مرغوب فيه.

في اللقاءات العائلية، كانوا يحرصون على تشغيل الأغاني بصوت أعلى حين يَرَوْنَهُ، ويدعونه لحفلات الميلاد المختلطة، فإذا اعتذر قيل:

ما كل هذا التعصُّب؟

وإن حضر وجلس جانبًا، أطلقوا النِّكات على هيئته ولحيته.

أما النقاشات، فكانت لا تنتهي؛ سخرية من العلماء، واستهزاء بالمظاهر الدينية، ومحاولات لجَرِّه إلى جَدَلٍ عَقِيم.

في أحد الأيام، دُعي لحضور حفل زفاف أحد أقاربه. كان يعلم أن الحفل لن يخلو من المعازف والمخالفات الشرعية، فقرر أن يحضر للعشاء فقط ثم ينصرف. لكن في مدخل القاعة، أوقفه ابن خالته مُبتسما بسخرية:

ما فيش داعي يا شيخ تدخل.. هنعفيك من الحرج.

كانت الجملة كسكين بارد في قلبه.

لم يَرُدّ، اكتفى بابتسامة هادئة وانصرف، بينما ضحكاتهم تتبعه.

ذات ليلة، احتدمت نقاشات العائلة حول الحرية الدينية.

وقف البطل في منتصف المجلس وقال بهدوء:

عندما كنت أشرب القهوة معكم على أنغام الأغاني، كنتم تقولون: عاقل ومُنفتح. والآن، بعدما أصبحت أصلي وأترك الحرام، أصبحت مُتطرفا؟

ساد الصمت لحظة، ثم قال ابن خالته بصوت منخفض،

وكأنه اعترف بلا وعي:

رُبّما.. لأننا نرى فيك مرآة لا نريد النظر إليها.

بعد أشهر، جاءته فرصة عمل مُغرية في شركة كبيرة بالخليج، لكن بعقد يُلزمه بحضور فعاليات مختلطة، والمشاركة في احتفالات لا يرضاها شرع الله. كانت المكافآت المالية مُغرية، واحتاجت العائلة كلها للمال.

جلس طويلًا يفكّر، ثم قال لنفسه:

إن كان هذا رزقي، فلن أحتاج أن أبيع ديني لأجده.

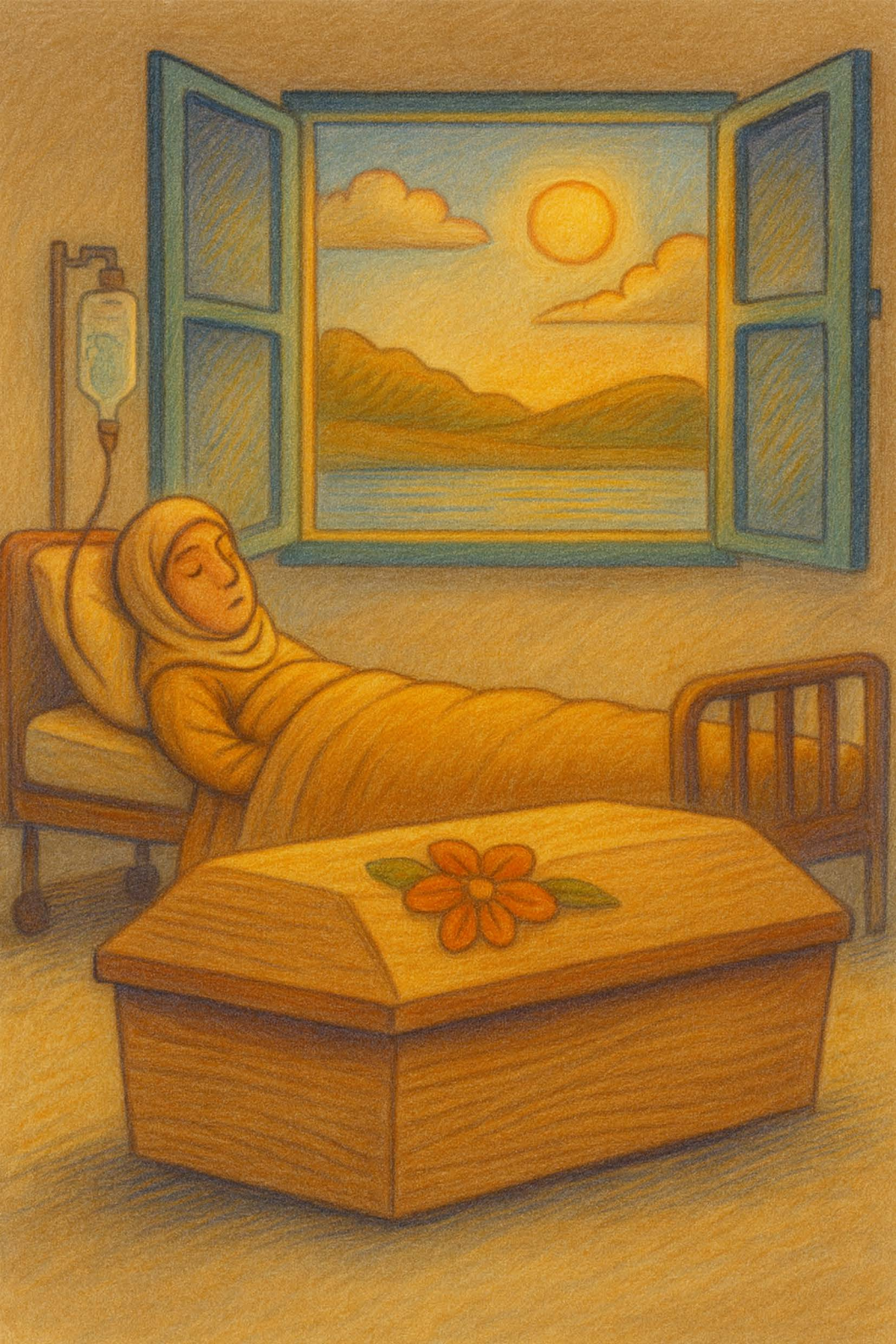
رفض العرض، رغم دهشة الجميع.

مع الوقت، بدأ يبتعد عن لقاءاتهم، ليس قطيعة، بل صيانة لدينه وحماية لقلبه. صار يبحث عن بيئة صالحة، ووجد مجموعة من الأصدقاء الملتزمين، يقضون وقتهم بين المسجد وحلقات العلم والعمل النافع. شعر أن الله عَوّضَه عن خسائره بأجمل الصُّحْبة.

وذات مساء، بينما كان خارجا من صلاة العشاء، لمح ابن خالته عند باب المسجد، مُتردّدا، يقلب كتابًا صغيرا كان البطل قد أهداه له قبل سنوات. لم يتبادلا كلمة، لكن العيون قالت الكثير.

ابتسم البطل، ومضى، وهو يهمس في قلبه:

اللهم رُدّنا إليك رَدًّا جميلا.



مَرْيَم..
زَهْرَةُ القُرآن التي سَكَنت السَّماء

بيتٌ طاهِرٌ.. وتربية نادِرَة

في بيت مَصُون بالإيمان، تُزَينه الطاعة، وتُؤنسه تلاوة القرآن، كانت تسكن مريم، ابنة أستاذ جامعي قدير، وفِلْذَة كبده، التي طالما تمنّى أن يُكْنى باسمها، فكان أحب أسمائه إليه: أبو مريم.

أما والدتها، فدكتورة صيدلانية فاضلة، شاركتْ زوجها في بناء بيت على التقوى، فخرجت مريم طيّبة النشأة، رَفِيعة الخلق، حافظة لكتاب الله، تميل إلى السّتر الكامل، وتتمنّى لبس النقاب، وكل من عرفها لمس فيها أدب القرآن وحياء المؤمنات.

وكانت مريم في عمر الخامسة عشرة، لكنها فاقت في نُضجها وإيمانها كثيرا ممن تجاوزوها سنا.

الابتلاء العظيم

وفي لحظة تهتز لها القلوب، كان والدها يصلي المغرب في المسجد، وإذا برسالة القدر تطرق الباب..

مريم سقطت من الدور الرابع!

نُقلت إلى مستشفى الطوارئ، في حالة حَرِجَة، دخلت في صراع مع الجِراح والكُسُور المتعدّدة، لكن لسانها بقي عامِرًا بالحمد، فكلما أفاقَتْ قالوا لها: **عاملَة إيه؟** فترد بثبات: **الحمد لله**.

والقرآن لا يفارق شفتيْها، وكأنها تُنهي به عمرا طاهرا، لا يشبه الأعمار..

رحلة الثبات والصبر

٧٢ يوما في المستشفى..

أبو مريم يبيت عندها كل ليلة، وأمها تلازمها بالنهار..

عيون لا تنام، وقلوب لا تتوقّف عن الدعاء، ووجوه صابرة مُحتسبة، وثقة عميقة أن الله يختار الخير لعباده ولو خَفِيَتْ حكمته.

ثم جاء الموعد..

رحلت مريم.

كرامات الوداع

لكن حتى لحظة الوداع.. أرسل الله رسائل الطمأنينة، وبشائر الرضا.

إجراءات تصريح الدفن التي عادة ما تُرهق أهل المريض سُهِّلت عجبًا، وكأن يدا من السماء تمهّد الطريق.

الشرطة، النيابة، المستشفى.. كل شيء يُسِّرَ بطريقة تُشعرك أن مريم منتظَرة هناك، حيث تُكرم الأرواح الطاهرة.

خرجت سيارة الإسعاف من المستشفى تحمل الجثمان مع أذان المغرب..

وقف زملاء والدها للصلاة على الطريق دون اختيار مسجد مُحدّد، وإذا بالإمام يقرأ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

فهل هي مُصادفة؟ أم هي رسالة ربانية تُربت على القلوب الصابرة؟

ثم.. وصلوا إلى القرية التي نشأت فيها مريم، مع أذان العشاء،

والمسجد الكبير في القرية لا يتسع لقدم..

وإذا إمام المسجد على بعد عشرات الكيلومترات يُعيد ذات الآية..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

نعم.. إنها رسالة الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الإيمان.



البَطَل الذي ذهب بكيس فارغ..
إلى الجنّة

في أحد أحياء غَزَّة الممزَّقة، كان هناك طفل صغير لم يعرف من الدنيا إلا الحِصار والقَصْف، ولم يتذوق طعم الطفولة إلا في لحظات خاطفة بين صوت الأذان ودَوِيّ الانفجارات.

كان إذا حصل على رغيف خبز، قسمه نصفين؛ نصفا له، ونصفا لإخوته.

وإذا وجد بقايا لعبة مكسورة، أصلحها بيديه الصغيرتين، ثم أعطاها لـمَن هو أصغر منه.

وفي دفتره المدرسي، كان يرسم بيتًا واسعًا تحيط به الأشجار، ويكتب فوقه: **هنا سنعيش حين تنتهي الحرب**.

في صباح يوم خانِق، اشتد الجوع في البيت، ونفد ما في الخزانة من طحين وعدس. كانت الأم تحاول تهدئة

الصغار، لكن أصوات بطونهم الفارغة كانت أصدق من أي كلمة.

اقترب الطفل منها، بعينين تلمعان بعزمٍ أكبر من جسده النَّحِيل، وقال:

سأذهب لأحضر لنا شيئًا.. حتى لو كان قليلا.

خرج من البيت حافي القدمين، يحمل في يده كيسا صغيرا فارغا،

وعلى كتفه حذاء ممزّق لم يعد يصلح للمشي.

قطع اثني عشر كيلومترا بين الرُّكام، ومرّ بجدران لا تحمل إلا ثقوب الرصاص، ورائحة البارود تحاصر أنفاسه، حتى وصل إلى مكان يسمونه: مركز توزيع المساعدات الإنسانية.

كان المشهد أمامه مَهِيبا: صفوف طويلة من النساء والأطفال، وجوه شاحبة، أيدٍ ممدودة، وعيون تبحث عن أي شيء يملأ المعدة الخاوِيَة.

اقترب الطفل من أحد الموظفين الأجانب هناك، ابتسم، وقبّل يده بعفوية.

ثم قال:

شكرا.. حتى لو لم يبقَ شيء.

انحنى والتقط نصف كيس من الأرز والعدس كان قد سقط على الأرض. كان هذا كل ما حصل عليه بعد رحلة شاقة.

لكن قبل أن يدير ظهره عائدا، دَوَّى صوت الرصاص.

في لحظة، عمَّت الفوضى.. صرخات، دخان غاز، أجساد تتساقط. كان الرصاص ينهمر على الحَشْد الأعزل.

سقط الطفل، وما زال الكيس في يده.

شاهد أحد العاملين الأجانب الموقف كله، فروى لاحقا:

كان نَحِيفًا إلى درجة أنّ ملابسه تتساقط عنه، لم يكن يرتدي حذاءً، شكرني على فُتات طعامٍ حصل عليه، ثم أُطلقت النار على المدنيين فسقط ولم يَقُمْ.

في البيت، كانت الأم تنتظر.. مرت الساعات ثقيلة، ثم الأيام.

بحثَت عنه في كل مستشفى، طرقت أبواب الصليب الأحمر،

فتشت في ثلاجات الموتى، وسألت في كل مكان.

الصغار كانوا يسألونها:

متى سيعود بالطعام؟

فكانت تصمت، ودموعها تجيب.

وفي تلك الليلة، عندما همست الأم للصغار أن أخاهم لن يعود، صمتوا طويلا.. ثم وضع أحدهم نصيب أخيه من الخبز جانبا، كأنهم ينتظرونه على مائدة الغد.. وكأنهم يرفضون أن يصدقوا أن الكرسي الفارغ سيبقى فارغًا إلى الأبد.

انتشرت صورته لاحقا على وسائل الإعلام،

وأصبحت قصته رمزا للبراءة المغدورة والجوع الممزوج بالكرامة.

تحدث عنه الناس في كل مكان، وانطلقت حملات تضامن،

ورفع البعض صورته في احتجاجات حول العالم.

ذلك الكيس الفارغ الذي خرج به من البيت، لم يعد

إلى المطبخ.. لكنه عاد مملوءًا عند الله بالحسنات والشهادة.

رحل وهو يحمل لقمة لإخوته، فصار عند ربه حيث لا جوع ولا حصار، حيث النهر الجاري والظل الظليل.

هذه ليست حكاية طفل واحد، بل حكاية غزة كل يوم..

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].


PRESS

حين صار القَلَمُ دِرْعًا.. والصوتُ سِلاحا

كانت السماء فوق غَزّة في ذلك اليوم تُشبه صَدْرًا مَثْقُوبا لا يقدر على الشهيق. الطائرات تَحُوم على ارتفاع منخفض، كغِربان من حديد، تنعَق بصرير أجنحتها. في أحد الأزقة القريبة من مستشفى الشفاء، هناك خيمة صغيرة تحولت إلى غرفة أخبار مُؤَقّتة، مليئة بأجهزة البَثّ، وأسلاك متشابكة، ورائحة غبار اختلط برائحة العرق والخوف.

جلس الصحفي عند زاوية الطاولة، يتفقد كاميرته وعدسة التصوير التي أصابها خدش منذ أيام. على هاتفه رسالة صوتية لطفلته وهي تحاول قراءة أول آية حفظتها بصوت مُتَلَعْثِم، وأخرى لابنه يضحك بعد أن تَجَرّأ على ركوب دراجته الجديدة.

كان يستمع لهما مرارًا، ثم يعيد تثبيت البطارية في الكاميرا.

دخل عليه أحد زملائه، وعلى وجهه علامات رجاء لا تخفى:

لا تزال لديك فرصة للخروج.. المعبر مفتوح الليلة، وهناك من ينتظرك في الخارج، الحياة لك ولأطفالك أهم من كل صورة.

أغلق الصحفي حقيبته بهدوء، ثم أدار العَدَسَة نحو ضوء الخيمة، وقال:

لو خرجت.. من سيحمل وجوههم إلى العالم؟

من سيكتب أسماءهم على الهواء قبل أن يصيروا أرقامًا في تقرير؟

الكلمة أمانة.. وتركُها خيانة.

لم يحمل بندقية، لكنه كان يعرف أن الكاميرا والقلم قد يُوجعان المعتدي أكثر من الرصاص. كان يكتب تقاريره في الليل على دفترٍ صغير، بحروف مُتَعَثِّرة بسبب انقطاع الكهرباء، ثم يرسلها مع الصور إلى الخارج. حاولوا

إسكات صوته مرارا: قصفوا بيته، قتلت شظايا القذائف والده، لكنه ظل واقفا أمام العدسة، يُدخل العالم إلى قلب المدينة المحاصَرَة.

مساء إحدى الليالي، كان مع فريقه يلتقطون مشاهد لحي تحول إلى أطلال. كان الغروب يلوّن السماء ببرتقاليٍّ باهت، فيما تتصاعد أعمدة الدخان من بين الأنقاض. في تلك اللحظة، دوّى انفجار قريب، ثم آخر أشد وقعًا، وأحس الجميع بالهواء يُسحب من صدورهم.

سقط الصحفي على الأرض..

ويده ما زالت ممسكة بالكاميرا كأنها جزء من جسده.

بعد ساعات، أقر الاحتلال باستهدافه عَمْدًا، وكرر اتهامه المعتاد: **إرهابيٌّ متنكِّر بزيِّ صحفي**.

لكن الحقيقة كانت أوضح من كل تبرير:

كان شاهدًا أرادوا إسكاته قبل أن ينطق الشهود.

في دفتره، عُثر على كلمات كتبت بخطٍّ متعجِّل:

إن وصل إليكم خبر رحيلي، فاعلموا أنهم لم يقتلوا الكلمة، بل صاحبها.

أوصيكم بهذه الأرض التي باركها الله، وأوصيكم بأبنائي وأبناء الشهداء..

لا تسمحوا للقيود أن تُسكتكم، ولا للحدود أن توقفكم.

لم يترك مالًا، لكنه ترك دروسا في معنى الشرف المهني، وكيف يمكن أن تتحول الكلمة إلى جدار يحمي ذاكرة شعب.

قصته ليست حكاية فلسطينية فحسب، بل شهادة إنسانية على أن الصحفيين في كل مكان قد يدفعون حياتهم ثمنًا لحق الناس في أن يعرفوا.

سيكبر أبناؤه وهم يعرفون أن والدهم لم يكن مجرد ناقل للأخبار، بل كان حارسًا للحقيقة. دمه لم يتوقف عند تراب غزة، بل صار رسالة للعالم:

لا تقتلوا الحقيقة بقتل حامليها..

فالحبر إذا امتزج بالدم يصير مدادا للتاريخ.



مِفتاح الانتظار

الغُرفة الأخيرة

في ليل طويل صامت إلا من أَنِين الجَرْحَى وبكاء الثَّكالى، وقف يوسف ـ طفل لم يتجاوز السابعة ـ عند نافذة مكسورة في غرفة هي كل ما تبقى من بيت مزّقته الغارات.

كان يحمل شيئا صغيرا في يده، صَدِئًا يلمع تحت ضوء القمر.. مفتاحا.

اقتربت منه أمه، تمسح رماد الغارة الأخيرة عن كتفيه، وهمست:

ما زلت تحتفظ به يا يوسف؟

أجابها بصوت هادئ، وضم المفتاح إلى صدره:

هذا مفتاح مسجد جدي..

وعدني أن أفتحه به عندما نعود.

قال لي:

مَن ينتظر الفجر عند النافذة كلّ ليلة، فسيرى النور يأتي من هناك.

نظرت الأم إلى الأُفُق المظلم، حيث الدخان يختلط بوهج القمر، ثم مسحت دمعة على خدها وقالت:

الفجر قريب يا حبيبي..

ولا يخلف الله الميعاد.

⫽ المدينة البعيدة

في شقة مكيّفة، حيث الضوء الأزرق للهاتف يُلَوِّن وجه نادر ـ شاب في العشرينيات ـ جلس عند نافذته، يتقلب بين الأخبار والصور، يتصفح بلا قلب، ويغرق في صمتٍ بلا معنى.

وفجأة..

توقّف عند صورةٍ لطفلٍ في غزة، يحمل مفتاحًا، ويرنو بعينيه إلى السماء.

أسفل الصورة كُتب:

الطفل يرفض النوم حتىٰ يعود إلىٰ مسجد قريته

اغرَوْرَقَت عيناه، وهمس لنفسه:

من أنا حتى أشكو فراغ أيامي؟

هذا الطفل يحمل مفتاحا بلا باب..

وأنا أملك أبوابًا بلا مفاتيح..

رفع بصره إلى القمر الذي يشبه القمر الذي ينظر إليه يوسف، ثم فتح دفترًا قديمًا، وكتب:

كيف تنام، وعيناك ترىٰ القمر نفسه الذي يراه أطفال غزة؟

عند أطلال المسجد

في صباح تسربت فيه خيوط الشمس من بين الركام، جلس يوسف عند حجارة المسجد، يقلب المفتاح بين يديه.

اقترب منه شيخ كبير، نحل جسده، وقوي إيمانه، جلس إلى جواره بصمت.

قال الشيخ:

ما زلتَ تحمله يا بني؟

أَوْمَأ يوسف:

نعم.. وأنتظر.

ابتسم الشيخ، وربّت على رأسه، ثم قال:

المفتاح لا يصدأ في يد مَن يحسن الظن بربه.

وربك الذي وعد.. لا يُخلف الميعاد.

نظر يوسف إلى السماء وقال:

وهل تعود مدينتنا يوما يا عمي؟

فأجابه الشيخ:

لا يخيب الله عبدا ينتظر عند نافذته كل ليلة.

نحن لا ننتظر عبثا يا بني.. بل ننتظر بوعد الله.

والفجر لا يغيب عن الأرض التي فيها من يؤمن أن النصر قريب.

في السماء

في مقامٍ لا يُدرَك بالبصر، ولا يُوصَف باللسان، كانت الملائكة ترفع دعوات أهل غزة، وتكتب أنينهم في صحائف نورانية.

جاء في بعض تلك الدعوات:

اللهم، هذا مفتاح لا زال في يد طفل..

فافتح له بابا من أبواب رحمتك.

اللهم، هذا صبر عظيم من قلب صغير..

فلا تحرمهم رؤية الفجر بعد طول الظلمة.



قُصور على الرَّمْل.. ودُموع في البحر

في ساحة قصر الحَمْراء، وقف مصطفى يتأمل النقوش الذهبية على الجدران. كانت العبارات تهمس له:

«لا غالب إلا الله»

وبالقرب منه، كان سائح أوروبي شاب يلتقط الصور بدهشة:

كيف بنى المسلمون هذه الحضارة؟

حين كانت أوروبا غارقة في الظلام، كانوا هنا يصنعون النُّور.

ابتسم مصطفى بمَرارة:

لكنهم فقدوا النور حين انشغلوا بزخرفة الجدران..

وتركوا تزكية القلوب.

في الطرف الآخر من غرناطة، على شاطئ الجنوب الإسباني، كان عبد الله، الشاب الإفريقي، يقترب من الشاطئ بعد ليلة كاملة وسط أمواج المتوسط.

كان يحلم بدخول الأرض التي يراها في صور الإنترنت جنة الدنيا، دون أن يعرف أنها كانت يوما أرض أجداده المسلمين.

حين خرج من الماء، التفت يمينا ويسارا، فإذا بالمصطافين يركضون نحوه، لا ليقدموا له المساعدة، بل ليمسكوا به قبل أن يخطو على الرمال.

أمسك به شاب قوي وهو يصرخ:

ارجع من حيث أتيت، هذه ليست لك!

حاول عبد الله أن يشرح:

أنا لا أبحث عن حرب، أريد فقط أن أعيش.

لكن الشرطة وصلت سريعًا، كأنها على موعد، لتقيّده بالحديد أمام أنظار السائحين.

في عربة الترحيلات، جلس عبد الله مُبَلَّلًا، جسده يرتجف من البرد، لكن قلبه كان يحترق.

سأل الشرطي أحد رفاقه:

هل تعلم أن هذا المكان كان أرضًا للمسلمين لثمانية قرون؟

ضحك الآخر:

التاريخ لا يطعم الجياع، دعه يعود من حيث أتى.

تم ترحيله قَسْرا إلى بلده، والبحر خلفه يشهد على انكسار الحلم.

عاد مصطفى إلى مدينته في المغرب، مُثْقَلًا بمشهد عبد الله الذي قرأ عنه في الأخبار، ومُثْقَلًا أكثر بصدى تاريخ الأندلس.

قرر أن يبدأ مشروعا بسيطًا لتعليم الأطفال اللغة العربية وتاريخ حضارتهم، حتى لا يصبحوا غرباء عن جذورهم.

علق لافتة على باب المركز تقول:

من هنا تبدأ الأندلس من جديد.. من عقل طفل

أما عبد الله، فعاد إلى قريته مُحَطَّم الجسد، لكن بروح جديدة.

جمع أطفال الحي تحت شجرة قديمة..

وصار يحكي لهم قصة الأندلس..

كيف وصل الإسلام إلى إسبانيا،..

وكيف سقطت غرناطة حين تفرق أهلها، وانشغلوا بالدنيا.

قال للصغار:

لن أبحث عن أوروبا بعد الآن..

سأبحث عن الأندلس هنا، في قلوبكم.

وفي زيارة جديدة لقصر الحمراء..

وقف سائح أوروبي..

مذهولًا أمام جمال النقوش والزخارف:

كيف صنعوا هذا المجد حين كانت أوروبا تتعثّر في الظلام؟

لا بد أن أبحث في الإسلام،

بالتأكيد فيه سر صنع هذه الحضارة العظيمة.

سمع مرشدا سياحيا يهمس:

لقد بَنَوْهُ بالإيمان، وسقط حين صار الإيمان شعارات بلا أفعال،

ولن يبنوه مُجَدَّدًا إلا إذا عاد الإيمان من جديد،

ابحث، ويقينا ستصل.



وَراء الجُدران

عـاد مُنهـكا مـن عملـه، الشـمس تسـكب نارهـا فـوق رؤوس العابريـن، والزحـام يلتهـم الأعصـاب. وقـف حائـرا بيـن أن يركـب المواصـلات العامة المزدحمـة، أو أن يضحي بجزء كبير من ماله القليل لأجل قليل من الراحة.

قرر أن يركب سيارة أجرة.

أشار للأول.. تجاهله.

أشار لآخر.. لَوَّح بيده رافضا.

ثـم جاء ثالـث، مال بسـيارته قليلا نحـو الرصيف، وأطل من نافذته يسأله:

رايح فين؟

رد بصوت مُتعَب: **مكان كذا..**

توقفت سيارة الأجرة، فركب، وساد صمت ثقيل.

لم يشغّل السائق المكيف، والهواء الحار يَلْفَح وجهيهما بلا رحمة.

صَمْت..

حَرّ..

وهَمّ ثقيل يسكن النفوس منذ اشتعلت نار الحرب.

في خِضَمّ هذا السكون، قطع عليه تفكيره صوت تلاوة من مذياع قديم:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر:١٤].

ارتجف قلبه.

كأنّ الآية تخاطبه هو.

تذكّر مقطعًا رآه منذ أيام:

أحد الأبطال، شاب شجاع، يتسلّل نحو دبابة صهيونية محصَّنة، يرمي بداخلها هدية يُسَرّ بها قلب كل مؤمن، ثم يختفي في لمح البصر.

يا ألله! تمتم في نفسه.

أنا ما كنتش فاهم.. الجدار مش لازم يكون حائط من طوب! الجدار ممكن يكون جسم دبابة، بدن طائرة..

أو زجاج سيارة مصفحة..

التفت نحو السائق قائلًا:

سبحان الله، تعرف إن الأعداء مهما تحصّنوا..

دايمًا ربنا بيخلي للمؤمنين سبيل؟

رفع السائق حاجبيه بدهشة، ثم قال:

ما خطرش على بالي كده قبل كده.. والله فعلا!

واصلا الطريق وهما يتحدثان عن المعاني التي تتخفّى خلف الآيات..

عن سنن الله في نصر أوليائه..

وعن غفلة القلوب حين تبتلعها مشاغل الدنيا.

وصل إلى بيته، نزل بخطى أثقلها التعب، لكن قلبه خفيف كأنه طائر.

كأن شيئا جديدا قد استقر فيه.. يقين!

يقين بأن العدو مهما ملك من حديد ونار،

فإن الله لا يعجزه شيء.

وأن طريق النصر يبدأ من الداخل:

أن تكون مع المؤمنين..

أن تنشغل، كيف أكون أنا منهم؟





حين عاد السَّهْم إلى الخلْف

غصّت القاعة بالجمهور، الأضواء تغشي الأبصار، والتصفيق يملأ الفضاء.

صوته العذب ينساب في القلوب، وأغنيته العاطفية ترددها الشفاه.

لكن في قلبه.. فراغ.

جلس وحده في الغرفة، وقد خفتت الأنوار، ونظر إلى نفسه في المرآة:

لماذا رغم كل هذا النجاح.. أشعر أني ضائع؟

كانت ليلة شتاء، فتح المصحف لأول مرة بعد سنين، فمر على قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦]

فانفجرت الدموع. وسجَد باكيًا وقال:

اللهم تُبْ عليّ.. لقد سَئِمْت الدنيا يا رب.

استقبله بعض الوُعّاظ بترحابٍ حار:

أنت نصر للدعوة، توبتك تهزّ القلوب!

لكنهم ما ثبتوه بالعلم، ولا أرفقوا به في السير.

بل أَلْقَوْا به في خِضَمِّ الصراع السياسي والديني.

سمعهم يهمسون:

هو صوت الجماعة.. سيُهز به الباطل!

فتحولت التوبة من إصلاح نفس.. إلى مشروع حَشْد للأفراد.

ترك الأغاني، وألقى العود.

لبس الزي الشرعي، وأخذ يشارك في التجمعات والهتافات.

ثم ظهر في مقاطع يحمل السلاح، ويهاجم هذا الطرف أو ذاك.

كان تائهًا، لكنه مقتنع أنه على الطريق.

أنا الآن أدافع عن الدين.. قالها، لكنه كان يفتقد السكينة.

دارت عجلة الأحداث بسرعة..

مواجهات، دماء، فوضى، اتهامات..

وسقطت الأقنعة.

وصار المطرب التائب مطلوبًا للعدالة.

اختفى. واختفى معه السلام.

لا فن، لا دعوة، لا أهل، لا أمان..

بعد سنوات، ظهر مجدّدًا على الشاشة.

بلا لحية، وبلا يقين.

قال:

أنا لم أشارك في القتال.. فقط أردت أن أكون قريبا من الله.

ثم عاد يُغنّي.

لكنه حين ينظر إلى الجمهور، لا يرى في عيونهم البهجة القديمة.

ويردّد في نفسه:

هل ضاع مني الطريق مرتين؟

كان في يومٍ يتلو القرآن، وفي اليوم الذي يليه يهاجم جهة سياسية.

يرفع شعار التوبة، ثم يطلق كلمات الغضب.

يحكي عن حب الله، ثم يتهم عباد الله.

ما بين الفن والدعوة.. ضاع الاتزان.

ولو كان في الصحبة من يُبصّره لقال له:

يا أخي، إصلاح النفس أولى من الانخراط في المعركة!

لم يجد من يأخذ بيده كما فعل النبي ﷺ مع التائبين.

لم يسمع حديث رسول الله ﷺ:

«إِنَّ هَذا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ» (أخرجه أحمد).

إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فَارْجُه،

وإذا رأيته مع أهل البدع، فايْئَس منه،

فإن الشاب على أول نُشُوئِه.

في مساء خريفي، قصد صديقا قديما من أهل الحي،

شيخا اعتزل الناس.

طرق الباب. فُتح له بعد تردد.

قال له الشيخ:

يا فلان.. أهلًا بالوجه المتعَب.

جلس.. صمت.. ثم همس:

يا شيخ، أنا.. ضعت.

لا الفن نفعني، ولا الطريق الذي سلكته بعده هداني.

فقال الشيخ:

لأنك بدأتَ من الانتماء لا من الفهم، ومن الاندفاع لا من العلم.

قال البطل:

ظننت أن التوبة أن أترك الغناء، وأربي لحيتي..

وأهتف للحق..

قال الشيخ:

التوبة لا تبدأ من تغيير المظهر،

بل من طلب العلم.

وهل ظننت أن مَن تاب يحتاج أن يصرخ؟

بل يمشي على الجَمْر بصمت حتى يُشفى قلبه.

وأضاف:

أما الزهد.. فليس كراهية الحياة،

بل أن تملك الدنيا ولا تملكك.

قال البطل في أَسًى:

وما أفعل الآن؟ رجعت، لكنني لست أنا..

ولا وجدت ما كنت أبحث عنه.

قال الشيخ:

ارجع إلى نفسك لا إلى الناس.

اقرأ القرآن كما يقرأ المريض وَصْفَته،

لا كما يتلو المنشد قصيدته.

صلِّ كما يُصلي العبد الخائف،

لا كما يركع الممثّل أمام الكاميرا.

واجلس عند أهل العلم،

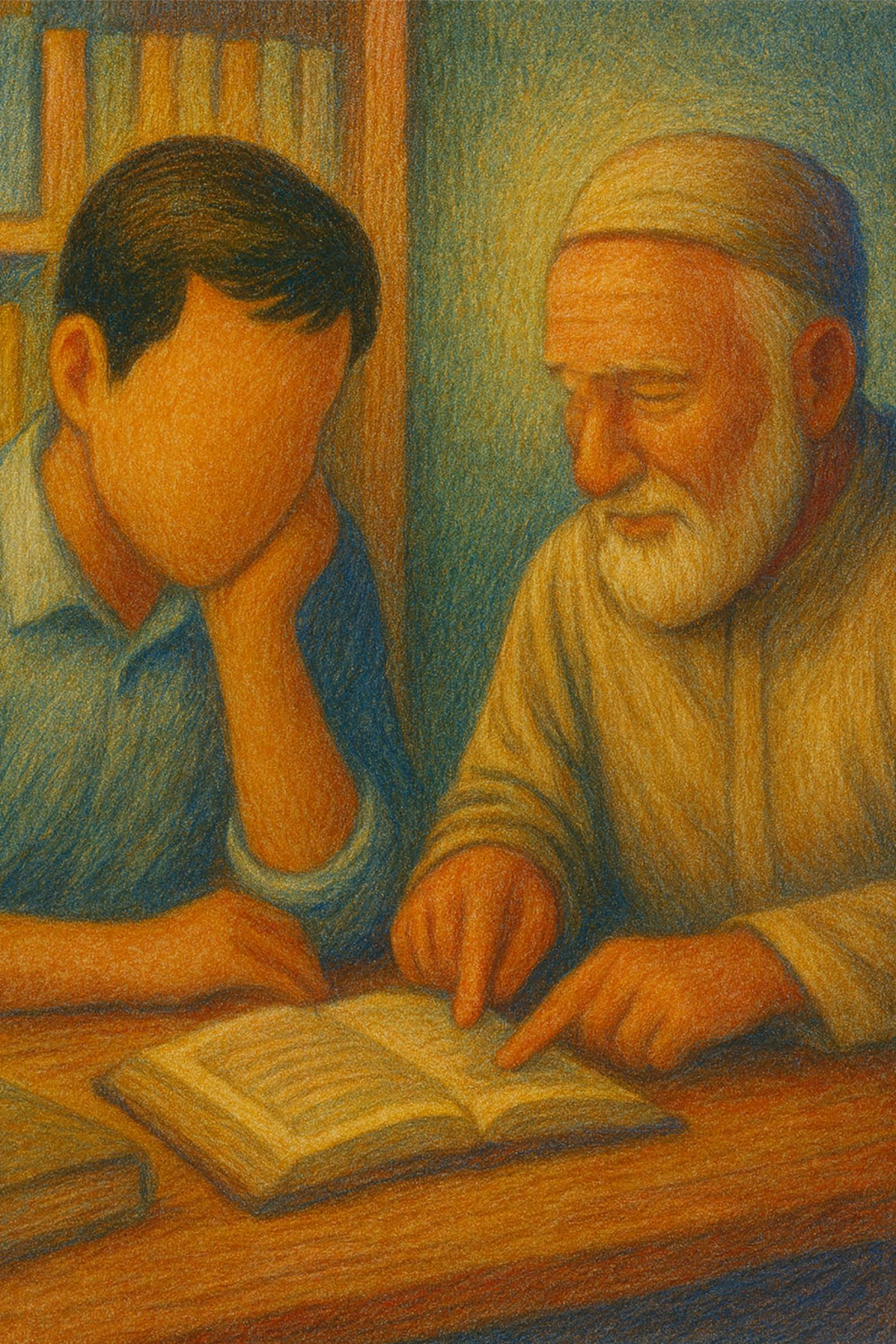
ولو لم يعرفوا اسمك.

واترك أهل الباطل مجددا وابتعد عنهم.

ثم ختم بقوله:

إن صدقت، يصدقك الله،

وإن سرت إليه ولو عَرَجًا.. سيبلّغك.



بين صُورة العِلْم وحقيقتِه

كان شابا عاديًا في الجامعة، منشغلا بدراسته وحياته، يؤدي الصلوات في المسجد، لكن لم يكن له كبير عناية بطلب العلم الشرعي. لم يعرف من دروس العلم إلا أسماءها، ولم يَذُق طعم مجالس العلماء ولا نور الوحي.

مرت به أيام عسيرة، ومشكلات متتابعة جعلته يبحث عمن يأخذ بيده، ويرشده إلى الطريق. أحس أن الحياة تتفلت من بين يديه، وأنه بحاجة إلى مرجعية يسألها ويستنير بها.

رآه أحد زملائه يوما شارِد الذِّهْن، فقال له:

تعال صلّ معنا المغرب في مسجد كذا، هناك شيخ فاضل من أهل العلم. ذهب، فجلس، فسمع، ثم سأل الشيخ عما

أشكل عليه.. فانشرح صدره، واطمأن قلبه، وانطلقت خطاه نحو النور.

بدأ يحضر مجالس العلم، وذاق لذتها، ورأى أثرها في سلوكه وأخلاقه، ومعاملاته مع ربه، وأسرته، وزملائه. علم أن العلم ليس رفاهية فكر، بل طريق نجاة، ونظام حياة.

لكن بعد فترة، راوَدَتْهُ خواطر خفيّة؛ فقد رأى شبابا يتصدَّرُون المجالس، يتكلمون في دقائق المسائل، ويستعرضون الكتب الكبار، ويحللون النقول والمعاني. انبهر بهم، وظن أن هذا هو العلم، وذاك هو العمق.

فأعرض عن مجالس العلماء الـمُرَبِّين، وأقبل على مجالس حدثاء الأسنان، يجادل ويحلل، يتكلم في كل فن، ولا يتورع عن كل قول.

صار يجالس من أوتوا ذكاءً، ولم يؤتوا زَكاء.

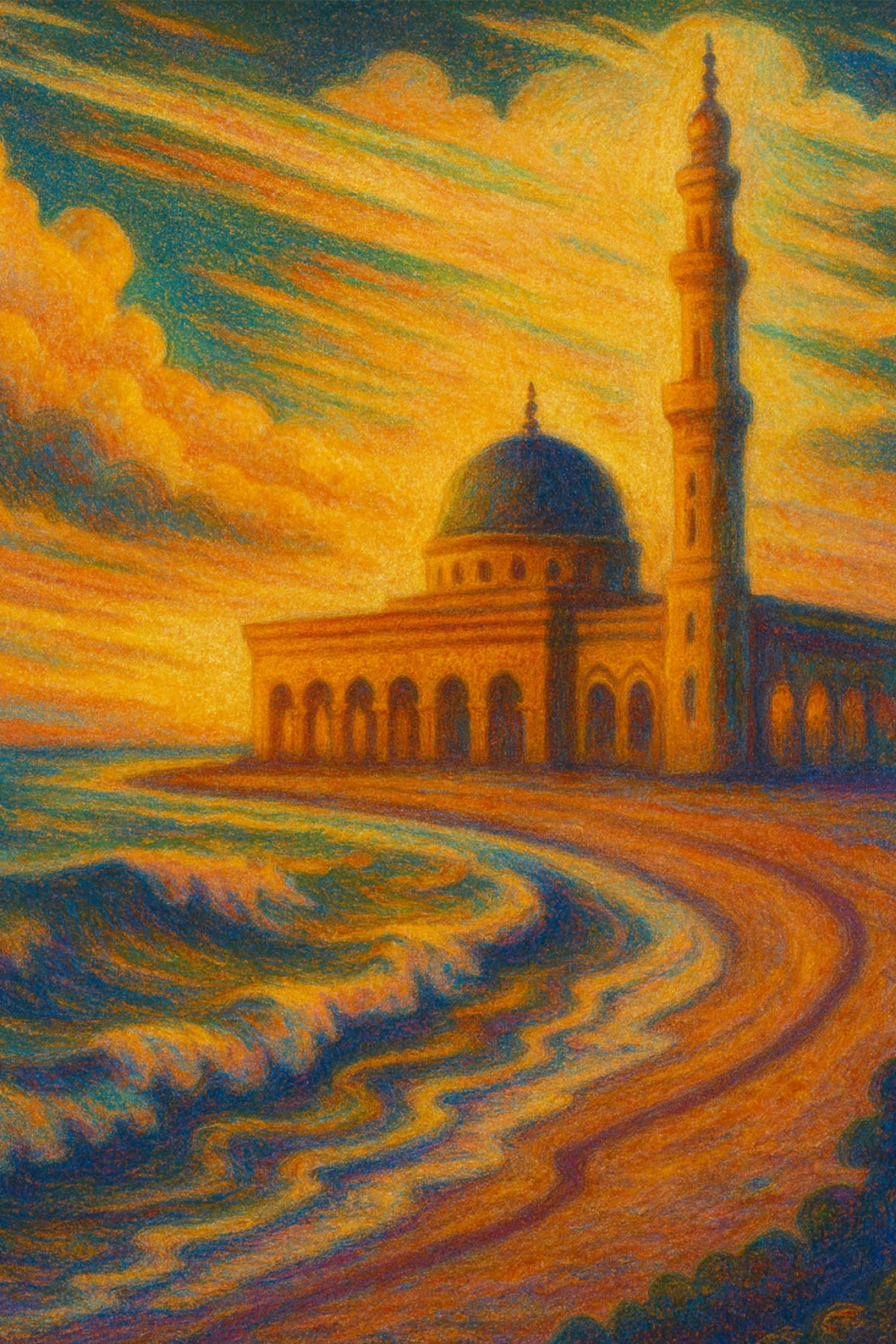
لكنه، بحمد الله، كان ذا فطرة سليمة، وقلب يخاف الله، فلم يقع فيما وقع فيه غيره. ما كان يطعن في أحد من أهل القبلة، ولا يسب علماء المسلمين، بل كان ينصح ويبين، دون أن ينتقص أو يسفّه.

ومع مرور الأيام، رأى بعينه مآلات أولئك الذين ظنهم علماء، فإذا بهم يسلكون طريق الهلكة: يحكمون على الناس، ويخوضون في أعراض العلماء، ويتجرءُون على الأكابر، ويزْدَرُون من سبقهم علمًا وسنًّا.

رأى سلوكيات لا تَمُتّ للإسلام بصِلَة، فعلم ـ يقينا ـ أن المعلومة ليست علما، وأن العلم الحقيقي ما أورث الخشية والعمل، وأن التزكية لا تنفك عن الدعوة، وأن الذكاء بلا زكاء فتنة، والمعرفة بلا أدب مهلكة.

فعاد إلى أهله الأوائل، إلى مجالس العالم المربِّي، والتزكية الراسخة، والخلق الكريم، وقال في نفسه:

اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ عِلمًا نافعًا ورزقًا طيِّبًا وعملًا متقبَّلًا.



على شاطئ العَوْدَة:

حِكاية بين نُور التأسيس وظِلال الأضواء

مدينة على الساحل

في مدينة ساحلية هادئة، حيث يلتقي الأذان بصوت الموج، كان سامي يعيش حياته بين عملٍ مُرْهِق وأسرة تحتاجه، لكن قلبه شعر أنه بحاجة إلى زاد إيماني.

وفي إحدى الليالي، لمح إعلانا عن دورة شرعية مكثفة لثلاثة أيام في المسجد الكبير المطل على البحر، عنوانها:

تأسيس للمُبتدئ، وتذكير للمُنتهي

همس لنفسه:

هذه فرصتي.. ثلاثة أيام أفرغ فيها قلبي لله.

تعارف وبداية صداقة

في اليوم الأول للدورة، كان المسجد عامِرًا بطلبة العلم من أبناء المدينة.

هناك تعرف سامي على أحمد؛ شاب بَشُوش، طيب المعشَر، كريم الطبع.

لم تمض جلسة حتى أصبح روح المجلس؛ يمازح، ويساعد، ويأتي بالفواكه للجميع بعد يوم طويل.

تعرف سامي كذلك على عليّ، شاب رَزِين هادئ الطباع، صار لاحقًا همزة الوصل بينه وبين أحمد.

ومنذ اللقاء الأول، لاحظ سامي أن أحمد شديد الحماسة، يتحدث عن حلمه في أن يظهر في الإعلام ويرد على أعداء الإسلام،

وكانت في نبرته لمسة خفيّة من حب الظهور.

النصيحة على الطريق

بعد انتهاء اليوم الأخير من الدورة، عرض سامي على أحمد أن يوصله بسيارته إلى منزله القريب من الشاطئ.

كان الطريق طويلا بما يكفي ليبوح أحمد برغبته:

يا سامي، لم أكمل حتى الآن كتابًا في العقيدة،

لكني أريد التخصص في الرد على النصارى والـمُلْحِدين.

ابتسم سامي وقال بهدوء:

يا أحمد، قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨]

التأسيس أولًا، ثم الردود.

الـردود نافعـة، لكـن لا يخـوض فيهـا إلا مـن أتـمّ بنـاءه العلمي.

ابْنِ بصيرتك في العقيدة والفقه والتفسير والحديث،

ثم سيأتي وقت الردود.

هـز أحمـد رأسـه موافقـا، لكـن بريـق الحماسـة ظـل في عينيه.

دورات متكرّرة.. وبوادر تغيّر

مرت الشهور، وعقدت دورة ثانية، ثم ثالثة في المسجد نفسه.

كان سامي يفرح برؤية أحمد في كل مرة،

لكن لاحظ تغيّرات صغيرة مع كل لقاء:

اهتمام أحمد بالتصوير والنشر ازداد.

بعض تعليقاته على العلماء أصبحت أكثر جرأة.

يلتقط صورا كثيرة على البحر،

ويشاركها مع جمهور متزايد على وسائل التواصل.

سامي كرر نصيحته، وأشرك عليّ، الذي كان مُقَرَّبا من أحمد،

ليساعده في النصح.

الدورة الرابعة.. والانزلاق الواضح

في الدورة الرابعة، بدا أحمد مختلفا:

يميل للجدل أكثر من التلَقِّي.

يتحدث بإعجاب عن بعض الأصوات المثيرة للجدل.

يستشهد بمقولات غريبة على أسماع طلاب العلم.

بعدها بأسابيع، وقعت الصدمة...

سامي يتصفح الإنترنت، فيرى أحمد في بث مباشر مع شيخ مثير للجدل، يضحك لمزاحه ويُرَدِّد عباراته.

قال سامي لنفسه مصدومًا:

أحمد؟! أهو أحمد نفسه؟!

توالت المقاطع؛ تصريحات أكثر جرأة، حتى جاء المقطع الذي كسر قلب سامي: أحمد يهاجم بعض كبار العلماء صراحة.

⫻ قلق وحزن ومحاولة فهم

اتصل سامي بـ عَليّ، وسأله بقلق:

يا عَليّ، ما الذي جرى لأحمد؟

هل ما زلت على تواصل معه؟

أجابه عَليّ بأسف:

تباعدت صلتي به.. نصحته أن يبتعد عن ذلك الشيخ،

لكن لا حياة لمن تنادي.

جلس سامي في صمت، كأن الكلمات أثقلت قلبه.
شعر بذنب داخلي:

هل قصرت في متابعته والتواصل معه؟

هل كنت أستطيع أن أفعل أكثر؟

شَرْخٌ في الجدار

لم يكن انحراف أحمد انغماسًا أعمى بلا تفكير.

مع مرور الوقت،

بدأ يلمس تصدُّعات في الصورة البراقة التي انجذب إليها.

سمع الشيخ الذي يتبعه يتحدث باستهانة عن نصوص شرعية مقدسة، فارتبك قلبه.

رأى بعض رفقاء الأضواء يتسابقون على الظهور،

يتنافسون على الإعجابات والمتابعين،

حتى لو بالجدل الفارغ أو بانتقاد العلماء الأجلاء.

صدمته رسائل قاسية من بعض من ظنّهم رفقاء،

ينهرونه إن حاول أن يتريّث أو يسأل.

ثم جاءته لحظة فارقة:

جلس ليلةً يعدّ المقاطع التي صوّرها، والبوستات التي كتبها، والمنشورات التي شاركها.

أحصى كل ما نشره منذ بدأ رحلته مع الأضواء.

فوجد أنه لم يقدِّم علما نافعًا يُقرّب إلى الله،

بقدر ما وجد في تلك المنشورات طعنًا في كبار العلماء،

طعنا في عدالتهم وضبطهم.

نظر إلى هاتفه طويلًا وقال في نفسه:

كيف ألقى الله عَزَّوَجَلَّ وهؤلاء خصومي؟!

كيف ألقى الله ولم أتعلم حقيقةً،

ولم أقدم ما قدموا،

ولم أنهل من علمهم،

ثم وقفت في صف مَن يطعن فيهم؟!

في تلك اللحظة، شعر لأول مرة أن طريق الأضواء لم يملأ قلبه،

بل أثقله، وأنه يحتاج إلى مخرج.

لقاء على البحر

في أحد الأيام، وبينما يتمشى سامي على كورنيش المدينة الساحلية، لمح أحمد جالسا على صخرة قريبة من الموج، ملامحه مثقَلة، وعيناه شاردتان.

جلس بجانبه، فسكت الاثنان لحظة، ثم قال أحمد بصوت مبحوح:

لقد أخطأت الطريق.. الشهرة أحرقت قلبي قبل أن تخدم ديني.

هز سامي رأسه بهدوء، واتصل بـ عَليّ قائلًا:

علينا أن نفعل شيئا.

رحلة العودة

لم يكتف سامي وعليّ بالحزن؛ قررا خطة هادئة لإعادة أحمد إلى الجادّة.

لم ييأسا سريعا:

كانا يعلمان أن الانْجِراف استغرق وقتا طويلا، والعودة ستأخذ وقتا.

جلسا معه جلسات هادئة.

استمعا أكثر مما تكلما؛ سألاه بدل أن يتّهماه:

أحمد، ما الذي جذبك إلى تلك المنابر؟

ما الذي وجدته في الأضواء ولم تجده في مجالس العلم؟

ذكراه بالماضي: بالأيام الأولى في طلب العلم، بالفرح الذي شعر به حين بدأ في تعلم العقيدة، وبالإخلاص الذي كان يتحدث عنه.

كانا نموذجًا عمليًّا.

استمرا في طريق العلم بهدوء، وأظهرا في سلوكهما ما يدعوان إليه.

استعانا بأهل علم يثق بهم أحمد. جلسوا معه، نصحوه بلا جدال ولا قسوة، ففتحت كلماتهم ثغرات في قلبه.

لم ينسيا الدعاء. كل ليلة رفع سامي يديه قائلا:

اللهم اهْدِ أحمد، اللهم رُدَّه إليك ردًّا جميلا.

⫻ خاتمة على الشاطئ

بعد أشهر من الحوار والصبر والدعاء، اجتمع الثلاثة سامي، وأحمد، وعلي على الشاطئ ذاته الذي شهد البدايات والانكسارات.

جلس أحمد بينهم، وعيناه دامعتان، وقال:

أخطأت الطريق.

وأحمد الله أن جعل لي إخوة لم يتركوني أضيع.

ابتسم سامي وقال:

الحمد لله أولا وآخرا.. الهداية والتوفيق من الله.

كان الموج يضرب الشاطئ بهدوء،

لكن هذه المرة بدا البحر رمزًا لرحلة مكتملة.

تيارات جارفة حاولت أن تبتلع أحمد،

لكن عناية الله ورحمته أعادته إلى بر الأمان.





حين انْطفأت الشِّعارات..
وأشرق نُور الوَحْي

كانـت ليلـة ثقيلة، تـكاد جـدران الغرفة تضيـق بصاحبها. جلس الشـاب على طرف سـريره، وعيناه تُحَدِّقان في سـقف غرفتـه كمـا لـو كان يبحث هنـاك عن إجابـات لم يعثـر عليها فـي الأرض. قلبـه يتقلب بيـن أمواج الحيـرة: شـعارات بَرّاقة تدعـوه للانضمـام، أصوات رفاق يسـتحثونه أن يكون معهم، وأسئلة لا تهدأ في صدره:

من على الحق؟ أيّ طريق أصدق؟ وإلى أين أمضي؟

انتفـض مـن تأملاتـه على صـوت أمـه، وهي تندفـع نحو غرفته فزعة من كابوس مزعج:

يا بُنَيّ.. إياك أن تذهب إليهم، أرجوك!

تسارعت نبضات قلبه، كلمات أمه كانت كوميض برق أضاء في ظلمة ليلته. ظل يتساءل في صمت: **هل هي مجرد مخاوف أُمٍّ حنون؟**

أم رسالة من السماء أن يتوقف ويفكر مليًّا؟

مع بُزوغ الشمس، لم يجد بُدًّا من استشارة من يثق بحكمته وعلمه.

قصد شيخا معروفا بالهدوء والتَّرَوِّي،

وبالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

جلس بين يديه مُطَوَّلا،

وأفرغ كل ما أثقل صدره من شكوك وتساؤلات.

استمع الشيخ بصبر،

ثم تحدث إليه بصوت عميق هادئ:

يا بُنَيّ، بِرّ أمك مفتاح للخير والنجاة.

وإيّاك والتحزُّب!

فهو غِشاوة على العين وقَيْد على القلب.

إذا انضممت إليهم فرضوا عليك الولاء المطلق لأهوائهم،

فإن خالفتهم يومًا نبذوك بعيدا.

فلا أنت بقيت في صفوف الدُّعاة المخلصين،

ولا استفدت في دنياك.

ليكن ولاؤك لله وحده،

فإن القلب لا يحتمل شَراكة بين خالقه وأهواء البشر.

ثم أردف مبتسمًا، وفي ابتسامته يقين واطمئنان:

صدقك مع الله هو الذي يُضيء طريقك،

فتمسّك بما ينفعك، وابتعد عن شَتات الأفكار.

وعليك بالعلم الشرعي الراسخ المستمد من منبع القرآن والسنة، فالحق لا يُعرف بالشعارات ولا بالضجيج.

في تلك اللحظة، أحس الشاب بنسائم الارتياح تُلامِس قلبه،

كأنما أزاحت الكلمات عن كاهله عِبْئًا ثقيلًا.

مضت أيام قليلة، وكان المشهد مختلفا تماما؛ شوهد الشاب الذي كان بالأمس تائِهًا، وهو يفتح باب مكتبة قديمة بابتسامة هادئة، يخرج منها مُحَمّلا بكتب مُنتقاة بعناية، مؤلفات علماء ودُعاة لم تستعبدهم اللافتات ولم تُقَيِّدْهم التحزُّبات.

وحين عاد إلى غرفته، جلس بهدوءٍ وسكينة، يسجّل اسمه في أكاديمية «نسق» للدراسات، وهي أكاديمية شرعية مَوْثُوقة عبر الإنترنت، يشرف عليها فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن النقيب.

يسعى بها ليرمّم ما فات من نقص في فهم دينه، ويتخذ منها منهجا واضحا لا لَبْس فيه.

وبينما يفتح أول صفحات كتبه الجديدة،

شعر بأن الغَمام الذي كان يحجب الطريق قد انقشع،

وأنه لم يَعُد رهينة للشعارات ولا ضحيّة للأحزاب.

أيقن أن السير إلى الله طريق واضح لا يحتاج إلى ضجيج ولا صخبٍ ولا تحزب؛

يكفيه أن تصدق نيته،

ويكفيه أن تكون خطوته الأولى في الاتجاه الصحيح.



الجَبِين النَّقِيّ.. على الرّصِيف

صفير الأجهزة يقطعُ سكون الليل.

سرير معدني بارد يحتضن جسدا ممزَّقا بالضرب.

رائحة المطهِّرات تخنق الهواء، والضمادات لا تخفي جراحا غائِرَة.

تتساقط قطرات الدم على الأرض،

تمتزج بورقة مُهْتَرِئَة عليها شعار حزب ذي خلفية دينية.

ينحني الممرّض،

يلتقط الورقة،

يتأملها لحظة،

ثم يرميها بهدوء.. في سلة النُّفايات.

كيف وصلنا هنا؟

هتاف بعيد..

خطوات تقترب..

ـ هو ده؟!

ـ آه، اللي بيوزّع منشورات الحزب الإسلامي!

ـ خليه يعرف إن السياسة مش للي بيتاجروا بالدين!

ثم انهالت الضربات.

ضربة على الرأس.

ضربة على العين.

ضربة على الظهر.

ضحكة خبيثة.

ـ دا جزاء اللي فاكر الدين سلّم للصندوق!

سقط الجبين النقي على الرصيف أمام لجنة الانتخابات..

تحت الورقة التي مزقتها الدماء.

⫻ في عمق الغيبوبة

داخل العتمة..

ينفلق شريطٌ من الذِّكْرَى،

لا هو حلم ولا وعي،

بل صورة من الماضي المتكسر.

مجلس علمي قديم.

شيوخ وطلاب.

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل هذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبحانَ اللَّهِ وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾ [يوسف:١٠٨] يعلو الجدار، وتحته شاب يحمل أوراق مشروع سياسي.

قال شيخ هادئ، يمسح على لحيته البيضاء:

السياسة تستهلك الدعوة قبل أن تنصرها..

ومن نافس الناس على دنياهم، خسرهم وخسر نفسه ودعوته.

قال آخر، بصوتٍ أشد:

أول كرسي ستحصلون عليه.. سيكون القبر الأول للمبادئ.

لكن الشاب أصرّ.

وبين يديه الورقة..

مدها إلى الشيخ الثالث، فتنهّد الشيخ، ثم طواها بيده ببطء..

كأنّه يطوي عهدا قديما، أو يدفن زمنا طيبا.

بعد سنوات

تمزق الصف، وعمّ التنازع.

رفقاء الأمس باتوا فرقاء اليوم.

خرجت الدعوة من المساجد إلى المنصات.. ومن الحلقات إلى الصناديق.

ظهر جيل يُبَجِّل الشعارات، لا المنهج، ويُقَدِّس الشيوخ، لا الحق.

الاختلاف صار خصومة،

النقد صار خيانة،

التحذير صار رجعية.

ثم انطفأ نور قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَأَطيعُوا اللَّهَ وَرَسولَهُ وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا وَتَذهَبَ ريحُكُم وَاصبِروا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّابِرينَ﴾ [الأنفال:٤٦] في زحمة الملصقات، والمنشورات، وشعارات الأحزاب.

فتح عينيه على وجع مَغْمُور.

في زجاج النافذة، رأى ملامح وجه مألوف...

جبين مشقوق.. عين غائرة.. روح تبحث عن طريق.

استدار بضعف..

رأى شعار الحزب مُلْقًى على الأرض مُلطّخا ببقعة دم جاف.

مد يده المرتعشة ليرفعه..

لكن اليد المكسورة لم تقوَ على شيء.

دخل الغرفة أصدقاء الأمس..

أولئك الذين أَبَوْا أن يسيروا في ركاب الحزب.

جلسوا حوله بصمت، العَبرة تملأ أعينهم.

قال أحدهم، وقد انحنى على يده:

الحمد لله الذي نجاك برحمته يا أخي..

نصحناك..

ما زلنا نحمل لك المحبة، والدعاء.

ارتفع أنين الدعاء في الغرفة..

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه،

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

عند باب المستشفى..

سقطت ورقةٌ ممزّقة تحمل شعار الحزب، من يد عامل النظافة.

هبت ريح خفيفة..

دارت بها لحظات،

ثم استقرّت فوق بقعة دم جاف على الرصيف.

مرت بجانبها امرأةٌ عجوز،

تتأمّل المشهد،

وهمست كمن يلقي حكمةً في وجه الزمن:

الله يسامح اللي بيلوثوا الدين بالسياسة..

وانسحبت.

أمام جبين مكسور، وبوصلة ملوثة،

يبقى السؤال يدوي في الضمير بلا جواب:

أي طريق إلى الله.. يُبنى على رصيف الانتخابات؟





حين أشرقت شمس الوَحْي

كان شابًّا نابهًا، ذكيًّا، نَقِيّ السريرة، لكنه غافل عن أعظم زاد. عاش عمره بين دَفّات الكتب ومختبرات التخصّص، غارقا في معادلاته، لا يعرف عن الحياة إلا رموزها العلمية، ولا عن الآخرة إلا كلمات سمعها عَرَضًا في مواعظ الإذاعة.

لم يكن له وِرْد من قرآن، ولا قلب يطرق باب السماء بسجدة، ولا عقل يستضيء بنور الوحي. تمر عليه المواسم العظيمة كأنها أيام عادية، ويبيت الليالي لا يذكر من ربه إلا اسمه في الامتحانات.

ومع ذلك، لم يكن فاسقا ولا فاجرا، بل شاب جاد، يحب النجاح، ويتطلع إلى المجد، لكنه كان يحسب أن

مفتاح السعادة والعزة في التخصص والنجاح الشخصي، وأن إصلاح العالم يبدأ من نفسه فقط.

مرت السنوات، ولم يُفتح له ما تمناه.

ثم دارت عجلة الزمان.. وبدأت الأحداث تعصف بالمجتمع.

أزمات سياسية، انهيارات اقتصادية، تغيرات ثقافية متسارعة. صراعات تملأ الفضاء، وشتائم وأفكار تتساقط عليه من كل اتجاه، ومصطلحات غريبة تسللت إلى الواقع كالسم الزُّعاف.

ليبرالية، علمانية، نسوية، ماركسية، ديمقراطية، أممية..

ضجيج لا ينتهي.

قرأ.. وقرأ.. وقرأ.

سهر الليالي يتنقل بين كتب الفكر الغربي، ومحاضرات يوتيوب، ومنتديات الأفكار. كان يظن أنه سيجد عندهم مفتاحا للنهضة، أو خارطة للخلاص. كان يعجبه جمال طرحهم، تنميق عباراتهم، سلاسة استدلالاتهم، وتوهُّج صورهم على الشاشات.

لكن كلما اقترب، صُدم. كلما غاص، اختنق.

أين الله في هذا كله؟!

أين الوحي؟! أين القرآن؟!

أين النبي ﷺ؟!

اكتشف أن القاسم المشترك بين هؤلاء جميعًا ـ على اختلاف توجهاتهم وتباعد مساراتهم ـ أنهم أجمعوا على أمرٍ واحد:

إقصاء الإسلام.

كلهم ـ دون استثناء ـ يريدون أن يُقْصُوا الدين عن الحياة، عن الحكم، عن الاقتصاد، عن الأسرة، عن التعليم، عن السوق، عن الإعلام، عن الهُوِيّة، بل عن القلب!

في البدء لم يرد أن يصدق، لكن الأيام كشفت له أنهم:

يرفعون الشعارات.. ويعبدون مصالحهم.

يتكلمون عن الحقوق.. ويدهسون المستضعفين.

يتغنون بالحرية.. ويمنعونك أن تتكلم عن ربك.

عاش حيرة قاتلة، وصراعا داخليًّا مدمرا.

هل هذا هو الطريق؟

هل هؤلاء هم المصلحون؟

كيف السبيل؟ وأين النور؟

حتى جاء اليوم الذي قرر فيه أن يفتح كتاب الله.

كان ذلك في ليلة شتوية صامتة..

أمسك المصحف بعد انقطاع،

كأنّه يمسكه لأول مرة، قلبه يرتجف، ودموعه تتسلل دون إذن.

قرأ: فإذا النور يتفجر بين يديه..

نظام مُحكَم، تشريع رباني، رب عادل كريم، ونبي هاد بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأمَّة مَدْعُوّة للخيرية والعز والقيادة.

أدرك حينها أن الإسلام ليس فقط دين المسجد، بل دين الحياة. دين العقيدة والسياسة، والاقتصاد، والتربية، والمجتمع.

أدرك أنه لا إصلاح بلا وحي.

ولا نهضة بلا قرآن.

ولا حرية بلا عبودية لله.

عاد إلى مجالس العلم بقوة، بدأ يتعلم، يقرأ في سيرة النبي ﷺ، ويسأل أهل الذكر، ويخالط الصالحين.

فتح الله عليه شيئًا فشيئًا.

وحين قارن بين الصدق في وجوه الدعاة، والإخلاص في أحاديث العلماء، والزهد في دنيا أهل القرآن..

وبين التهافت والتكالُب على الدنيا من أولئك المفكرين..

علم أنه ضلّ الطريق طويلًا.

فبكى.

وبكى.

ثم سجد.

ومن يومها لم يرفع جبهته عن الأرض إلا وهو يردد:

اللهم اجعلني من عبادك الذين قلتَ عنهم:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]


الأخلاق
وعلم النفس

لماذا تخلَّفْنا وتقدَّم غيرُنا؟

كان شـابًّا باحثـا عـن الحقيقـة، تشـتعل فـي صـدره منـذ سنواتٍ طويلة نار سؤالٍ واحد: لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟

لم يكن كسـائر النـاس، يُلْقِي التهمة علـى غيره ويمضي، بـل قـرر أن يجرب بنفسـه، ويغـوص في الأعمـاق حتى يجد الجواب.

انطلـق إلـى عالم السياسـة، خاض في ميـدان الحزبيات، نـادى بالديمقراطيـة، وهتـف بالعدالـة، ظـن أن فيهـا نهضـة الأمـة.. ثم خـرج منها مُحَطَّمًـا، وقد رأى التنازُع والانقسـام، ورأى كيـف تتبـدل المبادئ حسـب المصالح، فسـأل نفسـه: **أهذا هو الطريق؟!**

ثـم جـرب طريـق الأعمـال الخيريـة، فأنفـق، وسـاهم، وأسـس مبـادرات.. فرأى فقـراء لا يزدادون إلا شُـحًّا، وقلوبا

لا تعرف المعروف إلا بموعد الصدقة، وكأن الخير أصبح مشروطا بالحاجة لا بالإيمان..

وقال: **أين التغيير؟!**

ثم بحث في الفكر، قرأ لليساريين والليبراليين، تصوّف قليلا، ومال إلى الفلسفة بُرهة، لكن كل باب دخله وجد وراءه سرابا.. فلا هداية، ولا يقين، ولا ثمرة.

ثم التحق بجماعة دعوية، فوجدها مشغولة بالعدد لا بالمحتوى، تكثر الحركة، وتجيد التنظيم، لكن بلا روح، بلا وحي، بلا نور.

بل صار الناس فيها يدعون إلى التنظيم، لا إلى الله، إلى الفكرة، لا إلى النص، إلى الرمز، لا إلى الرسول ﷺ!

تعب، وأُنهك، وازدادت حيرته، فجلس يوما يناجي ربه في سجدة صادقة: **اللهم أرني الحق حقًّا، وارزقني اتباعه.**

وفي الليلة نفسها، وقع بين يديه كُتيّب صغير، عنوانه: لماذا تخلّفنا وتقدّم غيرنا؟ بقلم الشيخ الدكتور/ أحمد عبد الرحمن النقيب، حَفِظَهُ ٱللَّهُ.

بدأ يقرأ.. وكأنه يسمع صوته الداخلي يَرُد عليه لأول مرة.

قرأ أن المشكلة ليست غياب الطرق، بل غياب الوحي، وأن كل محاولة إصلاح لا تبدأ من النص وتعود إلى النص، فهي ساقطة وإن بدا بَرِيقُها.

قرأ أن الإسلام ليس تأويلات الفقهاء، بل هو الوحي المنزَّل، وأن الصراع بين الناس إنما يقع حين يُقدَّم الفهم على النص، والرأي على الوحي.

قرأ أن الدعوات التي نجحت في التاريخ لم تكن حزبية ولا فكرية، بل كانت نبوية سلفية، تصلح العقيدة، وتنقي التصور، وتهذب الخلق، وتوجه العمل.

قرأ أن الحل ليس في جمع الناس على الأفكار، ولا على المال، ولا على القوة، بل على الحق، وعلى الوحي، وعلى الخلق العظيم.

قرأ العبارة التي صعقته: لن تصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ثم بكى.. بكى كثيرا..

لقد جرب كل شيء.. إلا طريق الأنبياء.

ومنذ ذلك اليوم، قرر أن يربط حبل قلبه بالسماء، وأن يعود إلى الوحي، قرآنا وسنة، فهما وسلوكا، دعوة ومنهجا.

وصار يجيب من بعده كل من سأله: **لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟**

فيقول بثبات: **لأننا جرّبنا كل شيء إلا طريق النبوة.. طريق الوحي.**

ولمن أراد التفصيل، فإن هذه القصة مُستلهَمة من كتيِّب بديع للشيخ الدكتور/ أحمد عبد الرحمن النقيب حَفِظَهُ ٱللَّهُ، بعنوان: لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟ من إصدارات دار طابة ـ المنصورة ـ مصر.





النَّدم حين لا ينفع النَّدم

لـم يكن سـليم من أهـل الفجـور، لكنه لم يكن مسـتقيما أيضـا. نشـأ فـي بيـت طيـب، وتربّـى علـى مـكارم ظاهريـة، لكنه لم يكن جادا في التدين.

كان لَبِقًـا، حسـن المظهـر، مُهَذَّبًـا مـع الكبـار، يصلـي أحيانا، ويستحي أن يقال عنه عاصٍ.

وكان إمـام الحي، الشـيخ إبراهيـم، ذا قلب طيب، يجتهد فـي تزويـج ابنتـه سـارة برجـل صالـح، يجمـع بيـن الديـن والعقل، والأدب والكسب الحلال.

رأى في سـليم سَـمْتًا حسـنا، وأخلاقا رفيعة في التعامل، وشـهادة النـاس الطيبـة، ووظيفـة مرموقـة، فلـم يتـردّد كثيرا، خاصـة أن سـليم أظهـر لـه الرغبـة، وأبـدى الاسـتعداد لبنـاء بيت إسلامي.

أما سارة، فقبلت برضا الوالد،

وفي قلبها رجاء أن يكون زوجها ممن يستقيم مع الزمن، إن لم يكن كذلك من البداية.

كان قلبها متعلقا بالخير، وصدق النية، وقالت في نفسها:

سأعينه على الطاعة، وأدعو له كل ليلة.

وهكذا تم الزواج.

مرت الشهور الأولى جميلة هادئة، كان سليم كريما، حاضرا بهداياه، لكنه كان كثير الانشغال، لا يصلي الجماعة، ولا يفتح مصحفا، ولا يظهر شوقا لطلب العلم أو حضور الدروس.

في أول حوار صريح، قالت له سارة بصوت خافت:

أحبك، لكنني أخاف عليك،

وأخاف على بيتنا إن لم يكن الله هو أول ما نبدأ به.

أجابها، وهو يضحك:

أنا بخير، لا تقلقي، الناس تحبني، وكل شيء تمام..

لكن لا تكثري من النصح، فهذا يزعجني.

ثم بدأ قلبه يضيق بكلامها.

ومع الوقت، زادت المسافة بينه وبين المسجد،

وبدأ يقضي سهراته مع رفقة لا يُصلّون، ولا يذكرون الله.

كانت سارة تذكّره، تدعوه، تبكي حين تراه يهرب من الحق، لكنه ازداد صلابة، وتحوّل إلى رجل لا يريد أن يُذكَّر.

في يومٍ من أيام الشتاء، جاء متأخرا إلى البيت، وكان صوته مرتفعا. دخل فوجدها تقرأ في القرآن الكريم، وعلى شفتيها همهمة دعاء.

قال بعصبية:

كُفِّي عن هذا، لا أطيق هذا الجو الخانق.

قالت بهدوء:

هذا بيت بُنِيَ على نية صالحة، فلا تَخُنِ العهد، فإنك مسئول.

فردّ بحِدّة:

كفاكِ وعظًا!

أنا رجل ناجح، والناس تُثْنِي عليّ،

وأنتِ تُحبطينني بكلام الدين!

فقالت وهي تحبس دموعها:

الناس لن ينفعوك يوم القيامة..

وأنا لا أريد أن أُسأل عنك وقد فرطت في نصيحتك.

عندها نظر إليها نظرةً جامدة، وقال:

اخرسي!

ثم رماها بكلمة قاسية، كانت في قلبها كالسيف:

تَدَّعِين الصلاح، لكنك خنقتيني.. أنت سبب نُفوري!

كانت الصفعة معنوية، لا جسدية.

لكنها أوجعتها أضعاف ما لو ضربها بيده.

سقط المصحف من يدها، وغصّ صوتها بالبكاء، وخرجت من الغرفة، تبكي بحُرقة، ثم لم تنطق بكلمة.

في اليوم التالي، أصرّت على الرجوع إلى بيت أبيها.

لم تعاتبه، ولم تطلب الطلاق..

فقط قالت لوالدها:

والدي.. من تعلق قلبه بغير الله، فلن يستقر بي أبدا.

عندها عرف الشيخ إبراهيم أن ما ظنه خيرا كان ظاهرا فقط.

مرت أيام، ثم تم الطلاق.

عاد سليم إلى بيته، خاويًا من المعنى، فارغا من الشعور.

في البداية، حاول أن يبرّر ما حدث:

هي مُعقّدة، مُغالية، لا تفهم الحياة.

لكنه كان كلما دخل البيت، شعر بالوحشة،

وكلما رأى مصحفا شعر بالخجل.

بدأ يكثر الخروج، يتنقل بين الرفاق والمقاهي،

ثم انتقل إلى تطبيقات التسلية،

ثم إلى علاقات عابرة،

ثم إلى لهو لا يعرف له نهاية.

حتى جاء المشهد الذي بدل مجرى حياته.

في إحدى السهرات، جلس سليم مع مجموعة من أصدقائه القدامى في مقهى فخم. كان الجو مزيجا من الضحك والسخرية والقصص المبتذلة.

روى أحدهم قصة عن صديق لهم، اسمه سامي، اكتشف أن زوجته خانته مع صديق مُقرّب.

ضحك الجميع ضحكات مَشُوبة بالخِزْي، وقال أحدهم:

والله الدنيا ما تسواش،

تدور على بنت حلال، وتصونها،

وفي الآخر.. تخونك!

وقال آخر:

أنا من زمان بطّلت أصدق في موضوع الزوجة المثالية.

كله بيظهر وبس، جواهم حاجة تانية.

ضحكوا، وعلت أصواتهم.

أما سليم، فقد ظل ساكتا، ينظر في الفراغ، قلبه يشتعل.

في تلك اللحظة، تذكر إعجابه القديم بزوجة صاحبه سامي، التي كان يتمناها مَثِيلَة لزوجته. كانت متكلمة، أنيقة، تعرف كيف تكسب مجالس الرجال.

لكنه الآن يرى المشهد من زاوية مختلفة.

قال في نفسه:

كنت أعمى.. سارة كانت خيرا من كل مَن أُعجبت بهن.

كانت تحفظني في نفسها، وفي صلاتها، وفي سرها.

وأنا مَن خذلتها.

قام فجأة من الجلسة، وتركهم.

قال أحدهم مستغربا:

إيه يا عم؟ مالك؟

لم يرد سليم.

خرج.. وعيناه تدمعان.

مرت الشهور.

تغيَّر سليم.

بدأ يصلي، ثم جلس في حلقة تحفيظ، ثم تعرف على شيخ يرعاه، ورفقة طيبة تقويه.

أعاد ترتيب حياته. ترك بيته القديم، وسافر لأداء العمرة،

وبكى أمام الكعبة بكاء لم يبكه يوم فقد سارة.

لم يتواصل معها، ولم يسأل عنها، لكنه كان يدعو في جوف الليل:

اللهم إني ظلمتها، فاجعل ما أصابني كفارة لي، وعوضا لها،

واكتب لي ولها الخير ولو كنا بعيدين.

بعد خمس سنوات، عاد سليم إلى الحي،

ودخل المسجد بعد صلاة الفجر.

وجد الشيخ إبراهيم في مصلاه، يردّد أذكار الصباح.

تقدم نحوه بخجل.

سليم: **السلام عليكم يا شيخ..**

الشيخ (بهدوء): **وعليكم السلام يا سليم. نسأل الله الثبات لنا ولك.**

سليم: **شيخي.. لم آتِ بطلب. فقط أردت أن أشكرك.**

لقد كانت سارة.. بداية نجاتي،

لا لأنها كانت زوجتي، بل لأنها كانت ناصحة صادقة.

الشيخ: **وأنا أدعو لك من سنين، فقد بلغني حالك..**

وقد عفا الله عما سلف، وأكرمها بمن يعينها على دينها،

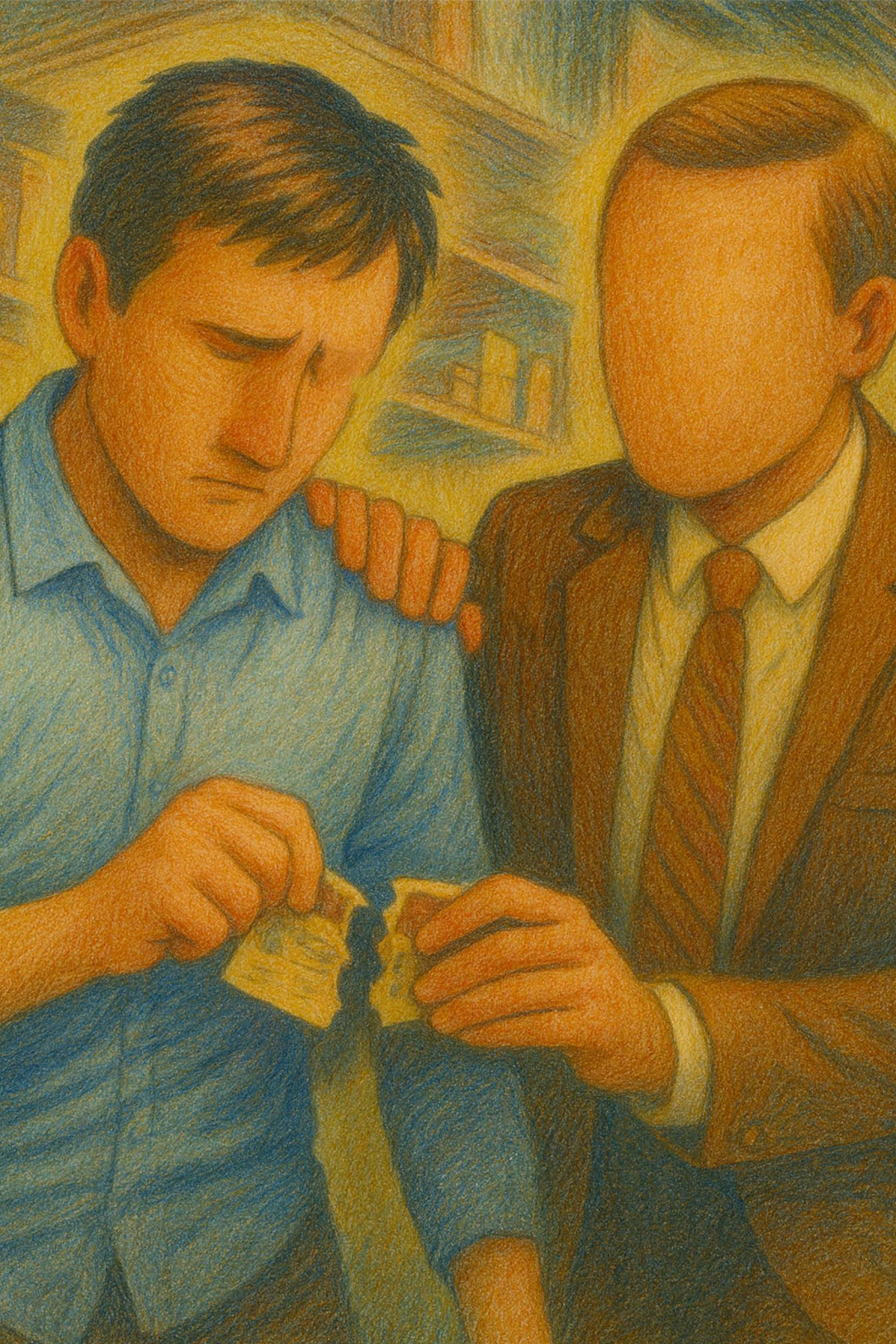
كما نسأله أن يثبتك أنت في طريق الهداية.

ليس كل حب يُتَوّج بزواج،

لكن كل توبة صادقة تُتَوّج بمغفرة.

فامض ولا تلتفت، وكن ناصحا لغيرك..

فالناجون هم الذين يُضيئون الدَّرْب لمن بعدهم.



حِصْنٌ من الله:
حين أنقذ الفقر قلبًا من الرِّبا

لـم يكـن يـدري أن مـا يحسـبه فقـرا كان فـي الحقيقـة حصنا من الله يحميه من دُروب الهلاك.

تخـرّج حديثـا فـي الجامعة، يحلـم مثل كثير من الشـباب بالسـيارة الفارهـة، والهاتـف الأحـدث، ووظيفـة محترمـة مَرْمُوقـة فـي بنـك ربوي يعلم منـذ نعومة أظفـاره أن معاملاته محرمة..

لكن بريق الدنيا قد يُعمي البصر والبصيرة.

قبِـل وظيفـة متواضعـة، وراتبه بالـكاد يسـد حاجته. ومع ضغـوط الحيـاة، بـدأ يفكـر فـي إصـدار بطاقـة فيـزا. نصحـه بعـض الأصدقـاء بالابتعـاد عـن الربـا، لكـن شـهوة المظاهر كانت أبلغ في قلبه من النصيحة.

في المكتب، جلس بجانبه زميله سامي، شاب ثَرِيّ، سيارته الفاخرة تلمع في مواقف الشركة فقال له مازحا:

سامي، أنت تشتري كل شيء كاش؟

ولا عندك فيزا بلاتينية زي الكبار؟

ابتسم سامي بهدوء، وكأنه يلقي في قلبه بذرة نُور:

الحمد لله.. لا أتعامل بالربا، ولا أضع نفسي في دَين لأحد.

أُخرج الزكاة أولًا بأول، أضع مالي في استثمارات حلال، حتى لو كانت أرباحها أقل.

لأن البركة في الحلال أغلى من كل رقم على ورق.

لكن كلماته لم تُثْنِه، وهزّ كتفيه قائلا في نفسه:

هذا يتكلم من بُرْجِ الغِنَى.. أما أنا فلي طريقي.

ذهب إلى البنك. سخر موظف الائتمان من راتبه الضئيل:

لن تحصل على البطاقة إلا بوَدِيعة.. ضع المال أولا.

لم يكن يملك المبلغ، فجاءه وسواس الشيطان:

اقترض.. ستصبح مثلهم.

فاقترض.. أودع.. وأصدر البطاقة.. وانفتح الباب.

دخل عالمًا لم يخلق له: مولات بَرّاقة، رفوف لامعة، وناس يجرون الأكياس. أراد أن يصير مثلهم، فمد يده إلى البطاقة.

دفعة تلو أخرى.. ثم سحب على المكشوف.

لكن اللحظات التي شعر فيها بالثَّراء اللحظي تبخرت سريعا. صار الليل ثقيلا عليه؛ يتقلب في فراشه يسمع في رأسه أصوات الأرقام: ٣٠٠٠.. ٥٠٠٠.. ٨٠٠٠..

الدين يتضاعف، والفوائد تتكاثر، والقلق يسحق أنفاسه.

أصبح يكره رنين الهاتف؛ كل اتصال مجهول يحمل إنذارا جديدا:

سيدي، إذا لم تُسَدِّد هذا الشهر، سيتضاعف الدين.

الآية تصرخ في قلبه كلما فتح محفظته: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦]

حتى جاء اليوم الذي كان يخشاه؛ رسالة مطالبة من البنك تُهدّد بحجز راتبه.

جلس في عتمة الليل، يبكي بحُرقة:

يا رب.. استرني ولا تفضحني، نَجّني ولا تهلكني.

وفي صباح الغد، جاءه سامي ذلك الزميل الورع فرآه مهموما، فسأله. سمع القصة كاملة، فابتسم وقال:

أنا أقرضك ما تحتاج..

دين بلا فائدة، بلا إذلال.

هذا ما أمر به نبينا ﷺ: القرض الحسن.

وسامحك الله.

سدد دينه.. فك وديعته.

مزق البطاقة الربوية.

وأحس قلبه ينبض من جديد.

في طريقه إلى البيت، كان يشعر أن الأثقال تتساقط من على كتفيه، كأنما خرج من غرفة مظلمة إلى نور الصباح.

أدرك ولو متأخرا أن الطموح الحق ليس بطاقة ائتمان ولا ديكور شقة جديدة.. بل قلبٌ سليم، ورزق حلال، وصحبة صالحة، وطريق إلى الجنة.

رأى أن سامي جعل المال خادما لا سيدا.

يُزكّي، يتصدق،

يستثمر بحذر، ويعيش بلا خوف من ديون الغد.

أما هو فقد تعلم من ألمه أن الربا لا يمنح رفاهية،

بل يحول الحياة إلى قيد ثقيل.

وختم رحلته بدعاء صادق:

اللهم نجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.



هل تعفُو عنه يوم القيامة؟

كان فتى نجيبًا، لم يعرف من الحياة سوى صفحات الكتب وقاعات الدراسة. أحرز مجموعا مرتفعا في الثانوية، فدخل كلية الطب، أرفع كليات بلده. والده، موظف كبير في إحدى دول الخليج، أغدق عليه الأموال دون حساب، فلم يحرم شيئا. اشترى له هاتفا حديثا قبل أن يعرفه أبناء جيله، وأهداه سيارة يذهب بها إلى الجامعة.

لكنه لم يجد من يرشده، أو يعلمه زكاة القلب والعقل قبل فطنة الذكاء.

اغتر بنجاحه، وأَغْوَتْهُ أموال أبيه، فالتف حوله أصحاب اللهو من الجنسين، يجرونه إلى دنيا من الغفلة. ما عادت السيارة تعرف طريق الجامعة، وما عادت أقدامه تعرف

المدرج، صار وقته موزعا بين السهرات والرحلات، لا يذكر فيها الله، بل تطفأ فيها أنوار القلب والعقل.

ذاق الخمر أول مرة فتَقَزّز، ثم أعاد الكأس، وواصل رغم الوحشة والضيق، ظنا أن السعادة في النسيان، وما علم أن الذنب نار لا تنطفئ إلا بتوبة.

ولم يطرق باب الله، بل طرق كل الأبواب سواه.

حتى كانت الفاجعة..

ليل مظلم، طريق سريع، سرعة جنونية، ضحكات تتعالى من مكبرات الصوت.. ثم صوت ارتطام مهول، زجاج يتحطم، دماء لا تُرى.

لم يتوقف: أكمل سيره.

وبعد كيلومترات، نزل يصلح الزجاج، فشاهد سيارة إسعاف تعود أدراجها.. ووراءها شرطة.

امرأة عبرت الطريق. وماتت..

في قسم الشرطة، أنكر، وكذب، وخرج!

ظن أن كذبه خلاص، وما علم أن الذنب لا يموت بالكتمان، بل يطارد صاحبه حتى يقف بين يدي الجبار.

سنوات مضت، وهو في كآبة وهَمّ، لا راحة في نوم، ولا سكينة في قلب. كوابيس تطارده، وندم يخنقه. جرب أطباء النفس، وسافر، وسهر، ونام، لكن لم تزل المرارة تأكله.

حتى جاءته الفرصة.. سافر مع والديه إلى العمرة.

وفي صحن الكعبة، وبين دموع الطائفين، فتح مصحفا وقرأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]، شهق، وصرخ:

يا رب.. لم أتعمد قتلها!

لكنه الآن يعلم: الدين ليس شعائر فارغة، بل نظام حياة، وعدل إلهي، ومسؤولية في الدنيا قبل الآخرة.

عاد من العمرة يبحث في حكم ما فعل، وعلم أن عليه الكفارة والدية، وأن التوبة لا تكتمل إلا برد الحقوق.

حاول الوصول إلى ذوي القتيلة.. بحث في أوراق المحضر.

أُبلغ أن القضية طُويت، والأوراق أُعدمت. لم ييأس.

توجه إلى قريتها، طرق باب العمدة، ثم دلوه على أهلها.

دخل عليهم، فانفجرت الدموع قبل الكلمات. بكوا جميعا بكاء مرًّا، وحدثهم بما فعل، وما ندم، وما تاب، وأنه لا يملك مالا، ولا وجها، وإنما قلبًا منكسرا.

فكانت المفاجأة.. عفوا عنه، لوجه الله، لا يريدون مالا ولا دِيَةً.

خرج إنسانا جديدا.

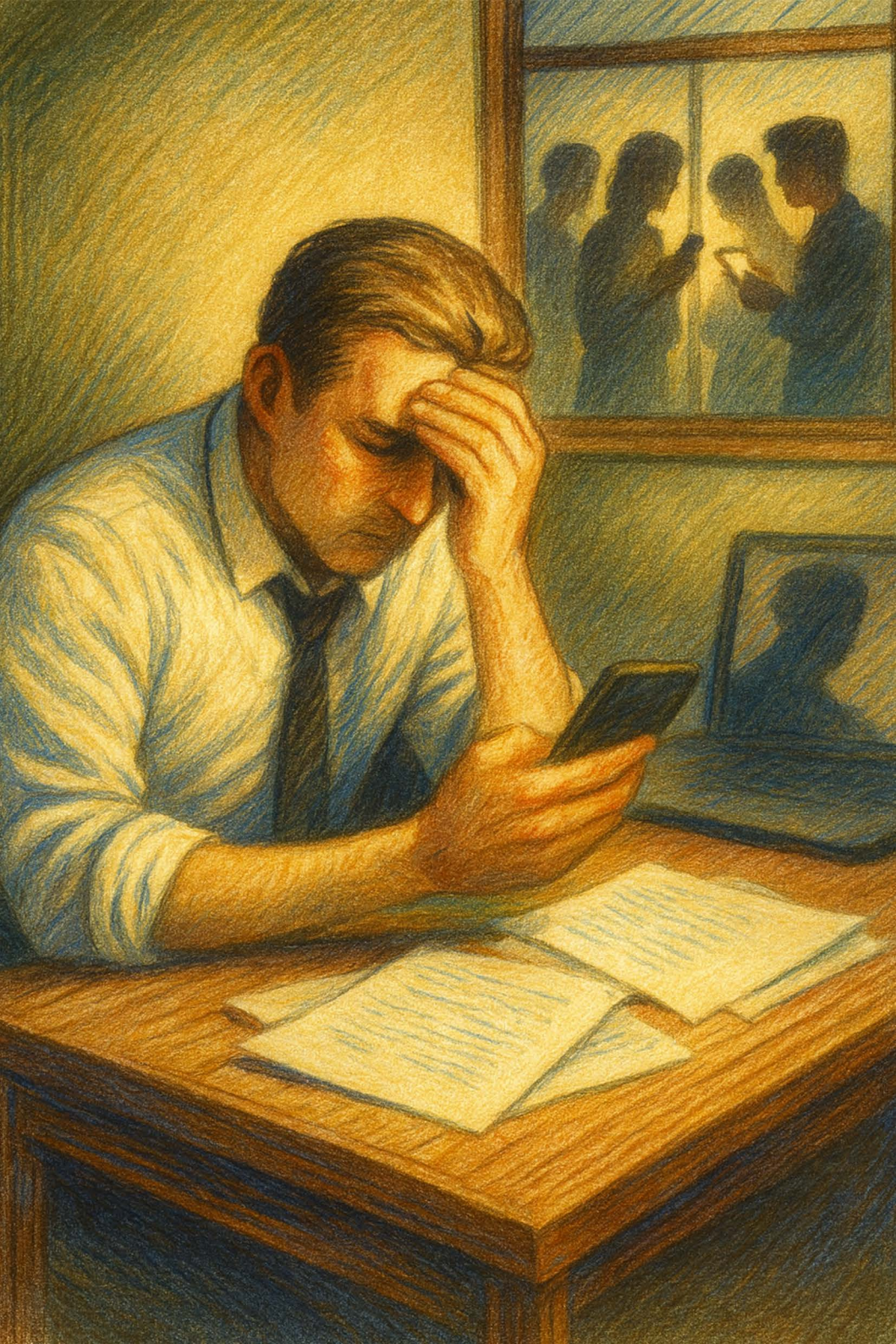
رجاؤه اليوم: أن يغفر الله له، وقد عفا الناس.

لكن سؤاله الذي لا يفارقه في خلواته:

هل تعفو عني يوم القيامة؟

هو لا يملك الجواب..

لكنه يملك التوبة، والرجاء، وكثرة البكاء بين يدي الله.



حين خانَ الأمانة.. وسقَط في الغَفْلَة

كانت الهواتف تطنّ في أرجاء الكلية..

ضحكات مكتومة، همسات ساخرة، ووجوه تختبئ خلف الشاشات.

جلس في مكتبه شاحب الوجه، يتصفح هاتفه بيد مرتجفة.

كل رسالة يفتحها كانت كصفعة على قلبه.

صور محادثاته مع تلك الطالبة التي ظنّها حبًّا صادقًا، تتناقل بين الزملاء والطلاب، تتزين بضحكات صفراء وتعليقات لاذعة.

شعر بأن الأرض تميد تحت قدميه.

أمسك رأسه بين كفيه، والعار يلتف حول عنقه كحبل مشنقة.

همس لنفسه وهو يختنق بالدموع:

يا رب.. كيف وصلتُ إلى هنا؟

وهنا بدأت ذاكرته تعود إلى الوراء..

كان شابا وسيما، يلفت الأنظار بذكائه وحضوره.

تخرج بامتياز من كليته، وحصل على وظيفة مرموقة في الجامعة.

في يوم تعيينه، قال له أحد زملائه مبتسمًا:

مبروك.. الوظيفة دي فتحت لك أبواب الدنيا!

ابتسم بثقة، ولم يدر أن ذلك الباب سيجره إلى مُنحدَر.

في البداية، تلقى رسالة عابرة من طالبة تسأله عن محاضرة؛

تردّد قليلًا ثم أجاب:

لا بأس.. مساعدة بريئة.

ثم رسالة أخرى في وقت متأخر من الليل،

ثم لقاء سريع لتوضيح مسألة أكاديمية..

الخيط الرفيع بين المسموح والمشبوه بدأ يتآكل.

كان ضميره يهمس له كل ليلة:

اتق الله.. هذا طريق خطر.

لكنه يرد: **لا، أنا أستاذ.. وهذه طبيعة عملي.**

ضميره كان كشمعة تنطفئ شيئا فشيئا.

رأى زملاءه يعقدون قرانهم، ويبدءُون تأسيس بيوتهم.

كانوا يهنّئون بعضهم البعض، ويحكون له عن استقرارهم وسعادتهم.

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال لأحدهم:

قيدتم أنفسكم مبكرا!

الحياة أمامكم.. لماذا تحرمون أنفسكم مُتَعَها؟

ضحك بثقة، ولم يكن يدري أن الساخر اليوم..

سيكون غدًا أكثر الناس ندمًا.

ثم ظهرت أمامه.

طالبة ذكية، مدلَّلة، متصنِّعة، تعرف كيف تصطاد الكلمات.

ضحكت من تعليقاته، ردت على رسائله بعبارات تشعل غروره، وتظاهرت بالاهتمام.

ظنها حبا صادقا، وفتح لها قلبه، وأرسل ما لا يُرسل.

لكنها كانت تسلية، لعبة خبيثة أمام زميلاتها.

انتشرت رسائله بين الهواتف كالنار في الهشيم، وصار همس الطلاب:

أستاذ الجامعة.. صار لُعبة في يد طالبة!

في لحظة واحدة انهار كل شيء.

واجه نفسه أمام المرآة، كأنها تسأله:

أهذا أنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟

ركض يلحق بالعفيفات ليطرق باب الزواج، لكن الأبواب أُغلقت.

وعند كل باب،

كان صدى سخريته القديمة من زملائه يعود إليه كسِياط على قلبه.

قيدتم أنفسكم مبكرا.. كلمات طعنته الآن بمرارة.

سمع الحقيقة عارية:

العفيفة لا تريد إلا عفيفا.. لتكون فرحة عمره، ولا يرى غيرها.

جلس في غرفته،

الليل يلفّه كسواد قلبه،

دموعه تتساقط،

وصوته متهدّج بالدعاء:

يا رب.. أعد إليّ نفسي التي ضيعتُها.

اجمع شتاتي قبل أن يُغلق العمر أبوابه.





بسبب أُمِّي.. عُدت إلى الله

عـاش عمـره بين الكتـب والمراجع، لا يعـرف من الحياة إلا دُروب العلـم ومشـقة التخصـص. لـم يكـن مـن أهـل التجربـة فـي دنيـا النـاس، فحياتـه تـدور فـي فَلَـك البحـث والدراسـة، وكان مـن المتفوقيـن الذيـن التحقـوا بالجامعـة مُعيدا بعد تخرجه.

لـم يكـن الـزواج شـغله الشـاغل، ولا العلاقـات موضع تفكيـره؛ فقـد كان يعلـم أن الله حـرم الاختـلاط والخلـوة، ويكفيه انشغاله بتخصصه الضيق ودراساته العليا.

وفـي إحـدى مراحـل الدراسـة، تعرف علـى فتـاة زميلة. لـم يُعِـر الأمـر اهتماما، لكـن ضغط والدتـه عليه ليتـزوج بدأ يشـتد. فكـر: ولـم لا؟ إنهـا زميلـة، علـى خُلـق، ويعرفها عن قرب.

فتح لها باب الحديث في الموضوع، فرحبت، وساعدتهم الزمالة على تكرار اللقاءات دون كُلْفة. كثيرا ما تناولا الغداء سويًّا في مطعم قريب من الجامعة.. كانت صلوات المسجد تؤذن، وحلقات العلم تعقد على مرمى حجر، لكنه كان غافلا، مستغرقا في وهم الحب، وأسرار التوافق.

ومضت الأيام، وقرر أن يتقدم رسميا. جلس مع أهلها..

فكانت المفاجأة: طلبات مادية باهظة، وشروط قاسية.

اعترض، فأوهمته بأنها أمور معتادة، وأنه كل حياتها، وعليه أن يبذل أقصى ما يستطيع.

فتغير، وبدأ يعمل فوق طاقته، ويرهق نفسه ليرضيها.

وذات مرة، في لحظة صفاء، سمع الأذان..

فتحرك قلبه،

أين أنا من ربي؟

من صلاتي؟

من عبادتي؟

ثم كانت الصدمة القاضية..

قالت له بصراحة:

أعلم أنك تحب والدتك، وأنا أقدّر ذلك،

ولكن بعد الزواج ستكون لنا حياتنا الخاصة،

لا أريدها أن تبيت معنا.

ذُهِل. سألها: **ولو مرضت؟**

قالت: **تزورنا، لا أكثر.**

حاول مناقشة أهلها، لكنهم أصروا على نفس الموقف.

هددوه: إما القبول، أو ضياع كل شيء!

خرج من بيتهم هائما.. تائها..

سار بلا وجهة، حتى سمع الأذان، ودخل المسجد.

جلس في ركن، ففتح الله قلبه، وسمع الإمام يقرأ من «الأدب المفرد»: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إني لا أعلم عملا أقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من بِرّ الوالدة».

هناك، اتخذ قراره.

اختار أمه، واختار الله.

فسخ الخطبة، وترك الأموال، وترك الزمالة التي أغوته عن طاعة ربه.

عاد إلى ربه باكيا، نادما، خاشعا..

وقلبه يقول: **يا رب، تركتُ لأجلك، فاجبرني.**

طلب من أمه أن تختار له زوجة صالحة، وركز في دراسته، فعوضه الله.

رزقه الله بزوجة صالحة، كانت له نعم المعين على الطاعة.

مرضت والدته، فانتقل مع زوجته ليكونا في خدمتها.

لم يطل مرضها، فقبضها الله إليه، راضية عن ابنها.

وفي لحظة خلوة، جلس يتأمل:

لو كنت قبلت شرطها،

كيف كنتُ سأعيش وأمي مريضة لا أستطيع خدمتها؟

والأعجب.. أن زوجته اليوم، كانت أقرب الناس إلى أمه، فارتفعت منزلتها في قلبه، وبين أهله.

لكن كل هذا لم يكن إلا لأن الله أنقذه، وأذن له بالرجوع إليه.





الشَّيْخ والفَتى.. حين استيقظ الضَّمِير

غفلة على وسادة من حرير

كانت الليلة دافئة على غير عادتها.. سكون يلف أرجاء الدار،

إلا من ضحكات مُبعثَرة تصدر من غرفة مُضاءة عند طرف البيت.

كان أبو بكر مُمَدَّدًا على أريكة ناعمة، يدير أصابعه في مسبحة ثمينة لم يسبح بها يوما، ويضحك مع صديقه في حديثٍ عن إحدى السهرات.

والله ما أطيب هذه الحياة.. مال، راحة، وصداقات لا تُمل!

كان فتى ذكيا، نبيها، لكن قلبه تماهى مع زخارف الدنيا ورفاهيتها.. تزينت له الحياة حتى خُيِّل إليه أنه خالد فيها.

لكن الليل يحمل معه ما لا تتوقعه الأرواح..

في منتصفه تماما، جاء الطارق،

يطرق الباب بلا تهيُّب..

يحمل بين يديه نبأ لا يمهل الأرواح المطمئنة:

لقد مات والدك.

جمد الدم في عروقه..

لم يكن الأب رجلا عاديا، بل من الصالحين.

قضى حياته يدعو ولده ألا ينسى الله، لكنه كان يرد بلطف:

دعني يا أبي، كلٌّ وله حينه.

وها قد أتى حينه..

لكن لا دعوة من أب بقيت، ولا مهلة من ملك الموت أُعطيت.

تَفُتُّ فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًا

وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

وَتَدْعُوكَ المَنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ

أَلَا يَا صَاح أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

جلس أبو بكر تلك الليلة في غرفته، لكن الضحك اختفى.

والأريكة الناعمة غدت كالسيف في جنبه.

ولأول مرة منذ زمن، لم ينم.

موعد مع صديق الوالد

بعد أيام من العزاء، زاره الشيخ أبو إسحاق، شيخ كبير السن، طيب الوجه، مَهِيب النظرة.

دخل الدار، وسأل عن الغلام، فقيل له: مُنْزَوٍ في حجرته.

جلس أمامه. صمت قليلا. ثم قال بصوت رخيم:

يا بني..

أَراكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ غَدْرٍ
أَبَتَّ طَلاقَها الأَكْياسُ بَتَّا

تَنامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ
بِها حَتَّى إِذا مِتَّ انْتَبَهْتا

فَكَمْ ذا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى
مَتَى لا تَرْعَوِي عَنْها وَحَتَّى

رفع أبو بكر عينيه، وقد ضاق صدره من كثرة اللوم.

قال وهَمّ بالبكاء:

والله يا شيخ، كنت أرجو أن أبدأ، ولكن..

ما زلت في مُقْتَبَل عمري..

ابتسم الشيخ، وقال بنبرة فيها حب وشفقة:

أَبا بَكْـــرٍ دَعَوْتُكَ لَـــوْ أَجَبْتا
إِلَى ما فِيهِ حَظُّـــكَ إِنْ عَقَلْتا

إِلَى عِلْـــمٍ تَكُونُ بِـــهِ إِمَاما
مُطاعًـــا إِنْ نَهَيْـــتَ وَإِنْ أَمَرْتا

وَيَجْلُو ما بِعَيْنِكَ مِنْ غَشـــاها
وَيَهْدِيكَ السَّـــبِيلَ إِذا ضَلَلْتا

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِـــي نادِيكَ تَاجًا
وَيَكْسُـــوكَ الجَمالَ إِذا اغْتَرَبْتا

يَنالُـــكَ نَفْعُهُ ما دُمْـــتَ حَيًّا
وَيَبْقَـــى ذُخْرُهُ لَـــكَ إِنْ ذَهَبْتا

هُوَ العَضْـــبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو
تُصِيبُ بِهِ مَقاتِـــلَ مَنْ ضَرَبْتا

وَكَنْـــزٌ لا تَخـــافُ عَلَيْهِ لِصًّا
خَفِيفُ الحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتا

يَزِيدُ بِكَثْـــرَةِ الإِنْفـــاقِ مِنْهُ
وَيَنْقُـــصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَـــدَدْتا

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِـــنْ حَلْواهُ طَعْمًا
لآثَـــرْتَ التَّعَلُّـــمَ وَاجْتَهَدْتا

وَلَمْ يَشْـــغَلْكَ عَنْهُ هَوًى مُطاعٌ
وَلا دُنْيـــا بِزُخْرُفِهـــا فُتِنْتا

وَلا أَلْهاكَ عَنْـــهُ أَنِيقُ رَوْضٍ
وَلا خِـــدْرٌ بِرَبْرَبِـــهِ كَلِفْتا

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْواحُ الـــمَعانِي
وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَـــرِبْتا

ثم نهض واقفًا، ومال عليه وهمس:

سَـــتَجْنِي مِنْ ثِمارِ العَجْزِ جَهْلًا
وَتَصْغُرُ فِي العُيُـــونِ وَإِنْ كَبِرْتا

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْـــتَ وَأَنْتَ باقٍ
وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْـــتَ وَإِنْ فُقِدْتا

وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَـــكَ بَعْدَ حِينٍ
وَتَغْبِطُهـــا إِذا عَنْها شُـــغِلْتا

لَسَـــوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْها
وَمـــا تُغْنِي النَّدامَـــةُ إِنْ نَدِمْتا

وخرج الشيخ من عنده، يطرق قلبه قبل أن يطرق الباب.

موعدٌ ضائع مع المجد

مرت أيام بعد زيارة الشيخ أبي إسحاق.. لم يكن في قلب أبي بكر من الجرأة ما يكفي ليبدأ طريق العلم، لكن كلمات الشيخ بقيت ترن في داخله كصَدى جرس ثقيل.

حاول أن ينشغل عنها.. بالسوق، بالسفر، أو بمجالسة أصحابه، لكن ما من شيء ينسيك حين يوقظ الله فيك قلبك.

في ذات صباح، دعي لحضور ندوة عامة في قاعة كبرى، وقيل له:

سيحاضر فيها العالم القدير، زميلك القديم..

الشيخ عبد الرحمن بن سفيان.

تجمد أبو بكر لحظة، وهمس لنفسه:

عبد الرحمن؟ ذاك الذي كنا نضحك منه لصمته؟

دخل القاعة، وقد غَصّت بالطلبة والفضلاء وأصحاب المناصب.

كان الشيخ عبد الرحمن جالسا، مَهِيب الطَّلْعَة، يقبّل الناس رأسه، ويصغون له بأدب ظاهر.

كان يتحدث عن أهمية العلم وفضله وأثره، وعن خطورة الجهل على صاحبه. قال بنبرة خاشعة:

فَواظِبْهُ وَخُذْ بِالجِدِّ فِيهِ
فَإِنْ أَعْطاكَهُ اللهُ أَخَذْتا

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طُولَ باعٍ
وَقالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتا

فَلا تَأْمَنْ سُؤالَ اللهِ عَنْهُ
بِتَوْبِيخٍ عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتا

فَرَأْسُ العِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا
وَلَيْسَ بِأَنْ يُقالَ لَقَدْ رَأَسْتا

وَضافِي ثَوْبِكَ الإِحْســـانُ لا أَنْ
تُرَى ثَوْبَ الإِســـاءَةِ قَدْ لَبِسْتا

إِذا ما لَمْ يُفِـــدْكَ العِلْمُ خَيْرًا
فَخَيْـــرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَـــدْ جَهِلْتا

وَإِنْ أَلْقاكَ فَهْمُـــكَ فِي مَهاوٍ
فَلَيْتَـــكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مـــا فَهِمْتا

شعر أبو بكر أن الجملة قُذفت في صدره قذفا.

غـص فـي حلقـه الـكلام، وهـم أن يخرج مـن المجلس، لكنه تماسك.

وبينما هو جالس، همس أحدهم في أذنه:

هذا عبد الرحمن الذي كان معك في بداية الطريق...

أتدري كم يحفظ؟ وكم له من دروس؟

هز رأسه في شُرُود، وقال في نفسه:

إِذا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَماءٍ
قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَـــفُلْتا

وَلا تَحْفِلْ بِمالِـــكَ وَالْهُ عَنْهُ
فَلَيْـــسَ المالُ إِلَّا مـــا عَلِمْتا

وَلَيْسَ لِجاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنًى
وَلَوْ مُلْـــكُ العِراقِ لَـــهُ تَأَتَّى

سَـــيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ
وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًـــا إِنْ كَتَبْتا

وَمـــا يُغْنِيكَ تَشْـــيِيدُ المَبانِي
إِذا بِالجَهْلِ نَفْسَـــكَ قَدْ هَدَمْتا

جَعَلْتَ المالَ فَوْقَ العِلْمِ جَهْلًا
لَعَمْرُكَ فِي القَضِيَّـــةِ ما عَدَلْتا

وَبَيْنَهُمـــا بِنَـــصِّ الوَحْيِ بَوْنٌ
سَـــتَعْلَمُهُ إِذا «طَـــهَ» قَرَأْتا

خرج من المجلس، يتقدّمه جسده، ويتأخر عنه قلبه..

وفي الخارج، وجده صديق اللهو القديم في انتظاره، على عادته،

وقال له مُمازحا:

أما زلت تفكر في كلام الشيوخ؟

تعالَ نضحك... هذه المجالس تجفف الأرواح!

ردّ عليه أبو بكر بكلمة قصيرة:

فَلَيْسَـــتْ هَذِهِ الدُّنْيا بِشَـــيْءٍ
تَسُـــوؤُكَ حِقْبَةً وَتَسُـــرُّ وَقْتا

وَغايَتُهـــا إِذا فَكَّـــرْتَ فِيها
كَفَيْئِـــكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتا

سُـــجِنْتَ بِها وَأَنْتَ لَها مُحِبٌّ
فَكَيْفَ تُحِبُّ ما فِيهِ سُـــجِنْتا

وَتُطْعِمُكَ الطَّعـــامَ وَعَنْ قَرِيبٍ
سَـــتَطْعَمُ مِنْكَ ما مِنْها طَعِمْتا

وَتَعْـــرَى إِنْ لَبِسْـــتَ لَها ثِيابًا
وَتُكْسَى إِنْ مَلابِسَـــها خَلَعْتا

وَتَشْـــهَدُ كُلَّ يَـــوْمٍ دَفْنَ خِلٍّ
كَأَنَّـــكَ لا تُرادُ بِما شَـــهِدْتا

وَلَمْ تُخْلَـــقْ لِتَعْمُرَها وَلَكِنْ
لِتَعْبُرَهـــا فَجِدَّ لِمـــا خُلِقْتا

وَإِنْ هُدِمَـــتْ فَزِدْها أَنْتَ هَدْمًا
وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ ما اسْـــتَطَعْتا

وَلا تَحْزَنْ عَلَى مـــا فاتَ مِنْها
إِذا مـــا أَنْتَ فِي أُخْـــراكَ فُزْتا

فَلَيْـــسَ بِنافِعٍ ما نِلْـــتَ مِنْها
مِنَ الفانِـــي إِذا الباقِي حُرِمْتا

وَلا تَضْحَكْ مَعَ السُّـــفَهاءِ لَهْوًا
فَإِنَّكَ سَـــوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتا

وَكَيْفَ لَكَ السُّرُورُ وَأَنْتَ رَهْنٌ
وَلا تَـــدْرِي أَتُفْـــدَى أَمْ غَلِقْتا

حين هاجت عاصفة الندم

في مساءٍ كئيب، وبينما كان أبو بكر يستعدّ لحضور مأدبة فاخرة،

شعر بدوخة مفاجئة..

ثم ألم حاد في صدره.. ثم لا شيء.

استفاق في المستشفى، تحيط به الأجهزة، وأمه تبكي على طرف السرير.

قال الطبيب:

هذه جلطة مفاجئة.. لكنها رسالةٌ من الله أن تُعيد ترتيب حياتك، فإن عدت إلى الإهمال.. فقد لا تنجو المرة القادمة.

أخذ يبكي.. ليس خوفا من الموت،

بل من حياة عاشها كأنه لن يُسأل عنها.

طلب المصحف لأول مرة منذ سنوات..

وضعه على صدره، وأغمض عينيه، ثم قال:

اللهم إني عبدك الذي طال بُعده، وغفل قلبه..

وها أنا عدت.

ثم سجَد لله سجدته الأولى منذ أعوام،

سجدة طويلة،

مليئة بالدمع والرجاء.

رن في قلبه صوت القصيدة:

وَسَـــلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيها

وَأَخْلِصْ فِي السُّـــؤَالِ إِذا سَأَلْتا

وَنادِ إِذا سَـــجَدْتَ لَهُ اعْتِرافًا
بِما نـــاداهُ ذُو النُّـــونِ ابْنُ مَتَّى

وَلازِمْ بابَـــهُ قَرْعًا عَســـاهُ
سَـــيَفْتَحُ بابَهُ لَـــكَ إِنْ قَرَعْتا

وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِـــي الأَرْضِ دَأْبًا
لِتُذْكَرَ فِي السَّـــماءِ إِذا ذَكَرْتا

وَلَا تَقُـــلِ الصِّبا فِيـــهِ مَجالٌ
وَفَكِّـــرْ كَمْ صَغِيرٍ قَـــدْ دَفَنْتا

الخوف من اليوم الآخر

مرت شهور..

أصبح المسجد بيته، والقرآن رفيقه، والسجود ملاذه.

وفي إحدى الليالي، رآه أحد جيرانه بعد الفجر،

جالسًا في ساحة المسجد يقرأ في خشوع،

والدمع يبلل لحيته.

اقترب منه ابن جاره الصغير ليسأله:

عمي.. لماذا تبكي؟

قال وهو يُرَبّت على كتفه:

يا بنيّ، إن الموقف يوم القيامة عصيب.

ثم بكى، بكى كثيرا وهو يقول لنفسه:

وَلَوْ بَكَتِ الدِّمـــا عَيْناكَ خَوْفًا
لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَـــكَ قَدْ أَمِنْتا

وَمَنْ لَكَ بِالْأَمـــانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ
أُمِرْتَ فَما ائْتَمَـــرْتَ وَلا أَطَعْتا

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى
لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِـــفَّ إِذا وُزِنْتا

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى المَعاصِي
وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَـــكَ ما رَحِمْتا

رَجَعْتَ القَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوًا
لَعَمْرُكَ لَـــوْ وَصَلْتَ لَما رَجَعْتا

وَلَوْ وافَيْتَ رَبَّـــكَ دُونَ ذَنْبٍ
وَناقَشَكَ الحِســـابَ إِذًا هَلَكْتا

وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِـــي عَمَلٍ وَلَكِنْ
عَسِـــيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمـــا حَمَلْتا

وَلَوْ قَدْ جِئْـــتَ يَوْمَ الفَصْلِ فَرْدًا
وَأَبْصَرْتَ الـــمَنازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعْظَمْـــتَ النَّدامَةَ فِيـــهِ لَهْفًا
عَلَى ما فِي حَياتِـــكَ قَدْ أَضَعْتا

تَفِرُّ مِـــنَ الْهَجِيـــرِ وَتَتَّقِيهِ
فَهَلَّا عَـــنْ جَهَنَّمَ قَـــدْ فَرَرْتا

وَلَسْـــتَ تُطِيقُ أَهْوَنَها عَذابًا
وَلَوْ كُنْتَ الحَدِيـــدَ بِها لَذُبْتا

فَلا تُكْـــذَبْ فَـــإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ
وَلَيْسَ كَما حَسِـــبْتَ وَلا ظَنَنْتا

الوصية الأخيرة

كتب وصية مختصرة، لا يورث فيها مالا ولا عقارا.. بل رسالة.

إلى ولدي: إن قُدّر لك أن تقرأ كلماتي هذه، فاعلم أن الدنيا ليست كما تظن.

كنتُ أظن أن المجد في الرفاهية،

فإذا به في السجدة الخاشعة.

كنتُ أظن أن النجاح في القصور،

فإذا به في بيت علم تنير به قلوب الخلق.

لا تغُرك زينة الحياة، فإنها تُطعمك.. ثم تأكلُك.

ولا تضحك مع السفهاء لهوًا،

فإنك سوف تبكي إن ضحكتَ.

وكن مع الله...

يكن كل شيء معك.

فَلا تَرْضَ الـــــمَعايِبَ فَهْيَ عارٌ
عَظِيمٌ يُورِثُ الإِنْســـــانَ مَقْتا

وَتَهْـــــوِي بِالوَجِيهِ مِـــــنَ الثُّرَيَّا
وَتُبْدِلُـــــهُ مَكانَ الفَـــــوْقِ تَحْتا

كَما الطَّاعاتُ تَنْعَلُكَ الدَّرارِي
وَتَجْعَلُكَ القَرِيـــــبَ وَإِنْ بَعُدْتا

وَتَنْشُـــــرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيا جَمِيلًا
فَتَلْقَـــــى البِرَّ فِيهـــــا حَيْثُ كُنْتا

وَتَمْشِـــــي فِي مَناكِبِها كَرِيمًا
وَتَجْنِي الحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْـــــتا

وَأَنْتَ الآنَ لَـــــمْ تُعْرَفْ بِعابٍ
وَلا دَنَّسْـــــتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتا

وَلا ســـــابَقْتَ فِي مَيْدانِ زُورٍ
وَلا أَوْضَعْتَ فِيـــــهِ وَلا خَبَبْتا

فَإِنْ لَـــــمْ تنْأَ عَنْهُ نَشِـــــبْتَ فِيهِ
وَمَنْ لَكَ بِالخَلاصِ إِذا نَشِـــــبْتا

وَدَنَّـــسَ مَا تَطَهَّـــرَ مِنْكَ حَتَّى
كَأَنَّـــكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَـــا طَهَرْتا

وَصِرْتَ أَسِـــيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثاقٍ
وَكَيْفَ لَكَ الفَكاكُ وَقَدْ أُسِـــرْتا

وَخَفْ أَبْناءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُمْ
كَما تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَنْتَى

وَخالِطْهُـــمْ وَزايِلْهُـــمْ حِذارًا
وَكُنْ كَـ«السَّـــامِرِيِّ» إِذا لُمِسْتا

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ سَـــلامًا
لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْـــلَمُ إِنْ فَعَلْتا

وَمَنْ لَكَ بِالسَّـــلامَةِ فِي زَمانٍ
يَنَالُ العُصْـــمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتا

وَلَا تَلْبَـــثْ بِحَيٍّ فِيـــهِ ضَيْمٌ
يُمِيـــتُ القَلْـــبَ إِلَّا إِنْ كُبِلْتا

وَغَـــرِّبْ فَالغَرِيبُ لَـــهُ نَفاقٌ
وَشَـــرِّقْ إِنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتا

فَلَيْسَ الزُّهْـــدُ فِي الدُّنْيا خُمُولًا
لَأَنْـــتَ بِها الأَمِيـــرُ إِذا زَهِدْتا
وَلَوْ فَوْقَ الأَمِيـــرِ تَكُونُ فِيها
سُـــمُوًّا وَافْتِخارًا كُنْـــتَ أَنْتا
وَإِنْ فَرَّقْتَهـــا وَخَرَجْتَ مِنْها
إِلَى دارِ السَّـــلامِ فَقَدْ سَلِمْتا
وَإِنْ كَرَّمْتَهـــا وَنَظَـــرْتَ فِيها
بِإِجْلالٍ فَنَفْسَـــكَ قَـــدْ أَهَنْتا
جَمَعْتُ لَـــكَ النَّصايحَ فَامْتَثِلْها
حَياتَكَ فَهْيَ أَفْضَـــلُ مَا امْتَثَلْتا
فَلا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَـــهْوِي
وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَـــدْتا

بعد وفاته بسنوات، وجد ابنه تلك الوصية.

فقرأها.. وبكى.

وسجد لله كما سجد أبوه ذات يوم، في لحظة رجوع، لا يُعلم من افتتحها.. ولا من ختمها.

الخاتمة

حين تُطوى الصفحات، وتخفت ألوان الكلمات في العين، يبقى في القلب صدى الحكايات.. صدى البحر الذي عاد بقلب جديد، ودمعة الرجل الذي ظل طفلًا حتى ودّع أمه، ورعشة اليد التي أمسكت بالتابلت لتكتشف عمرًا ضائعًا، وصوت المدينة وهي تُطفئ أنوارها لتوقظ الضمائر.

كل قصة هنا كانت مرآة صغيرة، عكست لحظة من حياتنا نحن، ولو أمعنا النظر، لوجدنا أننا نعرف شخصياتها، وربما كنا نحن أحدها في يومٍ من الأيام.

تعلّمنا من هذه الرحلة أن النهايات الحقيقية ليست عند انكسار الجسد، ولا عند تبدُّد الحلم، بل عند موت القلب. وأن الله يفتح لنا أبواب العودة من طرق لا نتوقعها،

ويجعل من المحنة ميلادًا جديدًا إذا أقبلنا عليه بصدق.

ولعل القصة الأخيرة ـ المُحلاة بأبيات التائية لأبي إسحاق الإلبيري ـ كانت بمثابة الجسر الذي يعيدنا من دنيا الغفلة إلى نور اليقظة، مذكّرةً بأن العمر ظلّ يتناقص منذ أول يوم، وأن الربح الحقيقي أن نلقاه بقلب سليم.

فلنجعل هذه الصفحات عهدا على أن نكون ممن يلتقطون رسائل الحياة، ويحولونها إلى عمل صالح، وذكر حسن، ورحلة آمنة نحو الآخرة.

اللهم اجعل خير أعمارنا آخرها،

وخير أعمالنا خواتيمها،

وخير أيامنا يوم نلقاك.

المحتويات

تمهيد..... ٥

إهداء..... ٦

شكرٌ خاصٌّ..... ٧

مقدمة..... ٩

يبقى الرجلُ طفلاً حتّى تموت أُمُّه..... ١٣

التابلت الذي كشَف عُمره الضائِع..... ١٩

رِحلة البحْر بقَلْب جَدِيد..... ٢٧

الشَّعْرة البيضاء..... ٣٣

حين أَطْفَأَت المدينةُ أنوارَها..... ٤١

لما تَغَيّر... تغيرّوا..... ٤٩

مَرْيَم.. زَهْرَةُ القُرآن التي سَكَنت السَّماء..... ٥٧

البَطَل الذي ذهب بكيس فارغ.. إلى الجنّة..... ٦٣

حين صار القَلَمُ دِرْعًا.. والصوتُ سِلاحا..... ٧١
مِفتاح الانتظار..... ٧٧
قُصور على الرَّمْل.. ودُموع في البحر..... ٨٥
وَراء الجُدران..... ٩٣
حين عاد السَّهْم إلى الخلْف..... ٩٩
بين صُورة العِلْم وحقيقتِه..... ١٠٩
على شاطئ العَوْدَة: حِكاية بين نُور التأسيس وظِلال الأضواء..... ١١٥
حين انْطفأت الشِّعارات.. وأشرق نُور الوَحْي..... ١٢٧
الجَبِين النَّقِيّ.. على الرّصِيف..... ١٣٣
حين أشرقت شمس الوَحْي..... ١٤٣
لماذا تخلَّفْنا وتقدَّم غيرُنا؟..... ١٥١
النَّدم حين لا ينفع النَّدم..... ١٥٧
حِصْنٌ من الله: حين أنقذ الفقر قلبًا من الرِّبا..... ١٦٩
هل تعفُو عنه يوم القيامة؟..... ١٧٧
حين خانَ الأمانة.. وسقَط في الغَفْلَة..... ١٨٣
بسبب أُمِّي.. عُدت إلى الله..... ١٩١

الشَّيْخ والفَتى.. حين استيقظ الضَّمِير..... ١٩٩
خاتمة الكتاب..... ٢١٩
المحتويات..... ٢٢١

خاطر
للخدمات العامة
002 - 01148684353
صف وتنسيق

قطرةٌ من الحياة

يونس

قصص من نبض القلب... ورسائل إلى الروح

بين أمواج البحر، وأنوار المدن، ودموع الندم، تكتشف هنا أن لكل قلب باب عودة، ولكل رحلة شاطئ أمان.

في زحام الحياة، حيث تتشابك الأصوات وتضيع البوصلة، تبقى القلوب في حاجة إلى كلمة صادقة، وقصة توقظها من غفلتها، وتعيدها إلى أصلها.

هذا الكتاب رحلة عبر أكثر من عشرين قصة، تنوّعت بين مشاهد الفقد، وفرح العودة، وصراعات النفس، ورسائل الوفاء والأمل. ستجد فيه البحر مرآةً للقلب، والمدينة التي تُطفئ أنوارها لتوقظ الضمائر، وصديق الأمس الذي غيّرته الأيام، ودمعة الندم التي جاءت متأخرة، وأبوابًا للرجوع فُتحت من حيث لم تُظن أنها تُفتح.

ويُختتم الكتاب بقصة فريدة، نُسجت على خيوط التائية الشهيرة لأبي إسحاق الإلبيري، ترجمت أبياتها إلى مشاهد روائية حافلة بالموعظة واليقظة.

إنها ليست قصصًا للتسلية، بل دعوة للتأمل، ورسائل للعمل، ونداء للقلوب أن تعود إلى الله قبل أن يُطوى كتاب العمر.